اسم الدرس : سورة فاطر | ح٢ | الآيات [١١ : ١٨]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد ﷺ.

نستكمل بإذن الله -عزَّ وجلَّ- تفسير سورة فاطر، ونكمل مع قول الله -عزَّ وجلَّ- في الآية ١١ {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١].

وكما ذكرنا في بدايات هذه السورة العظيمة، ابتداء بالحمد، والكلام على فاطر السماوات والأرض، وحقيقةً سنجد خلال تفسير هذه السورة ملمحًا يُسمى "ملمح التنوع"، وسنجد التنوع موجودًا بكثرة في السورة؛ التنوع بين المخلوقات، التنوع في الألوان، التنوع بين الصنف الواحد؛ فيوجد منه أنواع شتى.

وكما ذكرنا سابقًا بدأت السورة بالكلام عن مخلوق واحد هو الملائكة، ووظيفة واحدة هي الرُسل، وبالرغم من ذلك يوجد تنوع مثنى وثلاث ورباع {أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} [فاطر: ١] وسنرى أن ملمح التنوع يرافقنا إلى نهاية السورة.

وبعد الحديث عن أن الله -عزَّ وجلَّ- هو الخالق، الله -عزَّ وجلَّ- هو الرَّزاق، الله -عزَّ وجلَّ- هو الذي يملك كل شيء.

ذكر الله -سبحانه وتعالى-أن هناك أناسًا يبتعدون عن الله -سبحانه وتعالى- فما السبب؟ وذلك لأنهم يتعاملون بالأسباب المادية فقط، فيظنون أنَّ العِزة في غير طريق الله -عزَّ وجلَّ-، ويظنون أنهم لو مشوا في طريق الله لن ينالوا العزة؛ فالله -سبحانه وتعالى- يصحح لنا هذه المعلومة ويقول {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: ١٠]

من يريد أن يعيش في عزة ومَنَعَة وطمأنينة وسكينة فليلجأ إلى الله -سبحانه وتعالى-، هذه الأشياء عنده -سبحانه وتعالى- وحده، قال الله -سبحانه وتعالى- {وَأَنَّهُ هُوَ} وحده {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} [النجم:٤٣-٤٥]

فبعد الآيات يقول الله -عزَّ وجلَّ- {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠] وتكلمنا في الاحتمالات التي تخص هذه الآية.

ثم بدأ شوط آخر من قدرة الله -سبحانه وتعالى- المطلقة، القدرة أيضًا و ما فيها من تنوع، و أن الذي يفعل هذه الأشياء هو الله -سبحانه وتعالى-، حيث أننا نجد القرآن دائمًا يخاطب الإنسان ككل، ولا يخاطب عقله فقط، فلو كان القرآن يعطينا معلومات فقط لكان القرآن كله ثلاث صفحات فقط، أن الله واحد، أن الله يريد من الناس أن يعبدوه، الله -عزَّ وجلَّ- خلق الجنة، الله -عزَّ وجلَّ- خلق النّار، اعملوا الأعمال التي تدخلكم الجنة، وابتعدوا عن الأعمال التي تدخلكم النار... وينتهي القرآن.

لكن القرآن يخاطبك كإنسان لك مشاعر؛ خوف و رجاء وحب وأمل، ومن الممكن أن تحبط، و تيأس، يعالج كل هذه الأشياء فيك ككل.

فتجد أن كل شوط يضع لك المعلومة في وسط شوط آخر مثلًا؛ الكلام عن قدرة الله قبل المعلومة، فمثلا الكلام هنا عن العزة قبله كلام عن قدرة الله وبعده كلام عن قدرة الله فتستقر هذه الحقيقة في قلبك، فتوقن عندما تسمع {فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: ١٠] توقن فعلًا {فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا}.

بدأ هذا الشوط من قول الله -عزَّ وجلَّ- {وَاللَّهُ} والبداية باسم الله -عزَّ وجلَّ- العَلَم، اللفظ الظاهر ولم يقل [وهو] {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} [فاطر: ١١] وهنا تكلم الله -سبحانه وتعالى- أيضًا أن أصل الخلقة كلها واحد، وأن بدايتنا كلها واحدة وهي التراب، وبالرغم أن البداية من تراب ثم من نطفة إلا أن ربنا -سبحانه وتعالى- قدر أن نكون أزواجًا، ولهذا لم يقل [ثم خلقكم] بل {ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} ربنا قدر أن قضية التناسل تكون عن طريق زوجين {ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} [فاطر: ١١] أي {وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [النساء: ١] ربنا أوجد هذا التزاوج، التزاوج الذي فيه اختلاف بين الرجل والمرأة، وفيه تنوع واختلاف، هنا يكون التنوع نافعًا، وكما سنرى أن في السورة أحيانًا التنوع يكون نافعًا وأحيانًا التنوع يكون ضارًا، أحيانًا التنوع يكون مقبولًا وأحيانًا التنوع يكون غير مقبولٍ، وهكذا يوجد لدينا أيضًا تنوع في درجات أهل الإيمان، وأحيانًا التنوع أنه يوجد مؤمن وكافر. فالمؤمن لا يستوي مع الكافر؛ لكن أهل الإيمان يدخلون الجنة حتى وإن كان بينهم فروقات ودرجات.

فهنا ربنا -سبحانه وتعالى- يقول: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} [فاطر: ١١]

طبعًا كلمة [ثم] تفيد أن هناك مرحلة عظيمة حتى ينتقل الإنسان من تراب إلى نطفة، أو الإنسان ينتقل من نطفة إلى مرحلة التزاوج؛ هذا شوط عظيم جدًا من القدرة لا يعلمه إلا الله -سبحانه وتعالى-، ولا يستطيع أحد أن يفعله إلا الملك -سبحانه وتعالى-.

- وأريد منك أن تقرأ هذه الآيات {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ} [فاطر: ١١] وأن تحضر حفنة تراب وتتفكر، أنا الذي من لحم ودم ومشاعر وأتحرك وأفكر وأفعل و و...و... هكذا كان أصلي...كيف؟! كيف تحول هذا التراب إلى هذا الإنسان؟!

*{ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} [فاطر: ١١] وقلنا هنا أيضًا التنوع، ونجد أن الإنسان هنا يمر بمراحل، فهذه الآية تتكلم عن مراحل خلق الإنسان من أول التراب إلى أن يموت، وأنه خلال هذه المراحل منذ أن كان ترابًا، نطفة، أزواجًا، وهو في الحمل {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فاطر: ١١]، أثناء مرحلة الوضع، وأثناء مرحلة النمو {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ} [فاطر: ١١]؛ ففي كل هذه المراحل الإنسان لا يستطيع أن يغير أو يفعل فيها شيئًا.

* ربنا -سبحانه وتعالى- هو الذي يُقَدِّر متى يحدث الحمل وأن تتكون النطفة، الله -عزَّ وجلَّ- يُقَدِّر متى يتم الحمل، الله -عزَّ وجلَّ- يُقَدِّر هل سيتم هذا الحمل إلى آخره أم لا، الله -عزَّ وجلَّ- يُقَدِّر أن هذا الحمل سينتج إنسانًا سويًا أم لا، الله -عزَّ وجلَّ- يُقَدِّر إلى متى سيعيش هذا الإنسان، الله -عزَّ وجلَّ- يفعل ذلك وحده -سبحانه وتعالى-، فكيف يأتي الإنسان بعد كل هذا وهو مفتقر إلى الله -عزَّ وجلَّ- فيما قبل وجوده، وفي أثناء وجوده، و بعد وجوده، و فيما قبل الخلق وأثناء الخلق وبعد الخلق؛ هو مفتقر إلى الله في كل هذه المراحل، فكيف يلجأ إلى غير الله -سبحانه وتعالى-؟!

{ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فاطر: ١١] لم تأتِ هذه الآية بصيغة [أي أنثى تحمل، الله -عزَّ وجلَّ- يعلمها]، بل جاءت بصيغة الحصر والقصر كأنه قد حدث مسح، استقصاء لكل البشر، وبعد أن أتينا بكل البشر فصلنا الإناث عن الذكور، وبعد أن فصلنا الإناث عن الذكور أجرينا بحث في رحم كل امرأة مَن فيهنَّ تصلح للحمل؟، وبعد أن أحضرنا اللواتي يصلحن للحمل، مَن منهنَّ حدث لها حمل فعلًا، ويتم اكتشاف هذا مبكرًا؛ هذا كله عند الله -عزَّ وجلَّ- يتم في طرفة عين، لكن في معايير البشر إذا أرادوا أن يعرفوا كل هذا لن يستطيعوا؛ لكن الله -عزَّ وجلَّ- يقول وكأن أي أنثى قبل أن تحمل تستأذن {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فاطر: ١١] كأنها قبل أن تحمل تستأذن، وقبل أن تضع تستأذن، فإن أذِنَ الله -عزَّ وجلَّ- تم ذلك وإن لم يأذن لم يتم ذلك.

- كالشمس كما سيمر معنا {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} [فاطر: ١٣] الشمس قبل أن تشرق يوميًا تستأذن، الورقة قبل أن تسقط {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ} [الأنعام: ٥٩] الورقة تستأذن.

المؤمن عندما يعيش هذه الحياة ويستشعر بيقين أن كل شيء في الكون هو مِلْك للملك –سبحانه وتعالى– ولا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، سيكون إنسانًا موقنًا.

هو يعلم أن كل شيء من حوله جنود لله {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر: ٣١] يعلم أن الأرض أرضه –سبحانه وتعالى–، والسماء سماؤه –سبحانه وتعالى– يفعل ما يشاء.

- لذلك الرجل الذي كان قد اقترض ألف دينارٍ وذهبٍ لرجل غني، وقال له: أنا أريد ألف دينارٍ قال: من كفيلك؟ قال: الله كفيلي، قال: من وكيلك؟ قال: الله وكيلي، وأخذ الألف وسافر، وبعد أن جاء موعد السداد همَّ ليركب البحر فلم يجد سفينة، –الحديث في البخاري–[1] فوضع المال في خشبة ورماها في البحر، العجيب هنا هو لماذا رماها في البحر؟ لأن عنده يقين، أولًا هو أخذ بكل الأسباب المتاحة أمامه، هو يعلم أن البحر ملك لله وهو قال: الله كفيلي، والرجل قال له: رضيت بالله، فالذي بينهما هنا هو الله، فعندما لم يجد السفينة قال: يا رب أنت كفيلي والبحر بحرك والهواء هواؤك والملك ملكك، فمن أي شيء أخاف ؟! فرماها! الرجل الآخر خرج ينتظره فلم يأته أحد فوجد بعض الخشب فأخذ يحتطب بهذا الخشب ، ويكسره في البيت فوجد المال، الرجل

[1] [عن أبي هريرة:] عَنْ رَسولِ اللَّهِ ﷺ: أنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِن بَنِي إسْرائِيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إسْرائِيلَ أنْ يُسْلِفَهُ ألْفَ دِينارٍ، فَقالَ: ائْتِنِي بالشُّهَداءِ أُشْهِدُهُمْ، فَقالَ: كَفى باللَّهِ شَهِيدًا، قالَ: فَأْتِنِي بالكَفِيلِ، قالَ: كَفى باللَّهِ كَفِيلًا، قالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَها إلَيْهِ إلى أجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ في البَحْرِ فَقَضى حاجَتَهُ، ثُمَّ التَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُها يَقْدَمُ عليه لِلْأجَلِ الذي أجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فأخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَها، فأدْخَلَ فِيها ألْفَ دِينارٍ وصَحِيفَةً منه إلى صاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَها، ثُمَّ أتى بها إلى البَحْرِ، فَقالَ: اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ أنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلانًا ألْفَ دِينارٍ، فَسَألَنِي كَفِيلا، فَقُلْتُ: كَفى باللَّهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بكَ، وسَألَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفى باللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بكَ، وأنِّي جَهَدْتُ أنْ أجِدَ مَرْكَبًا أبْعَثُ إلَيْهِ الذي له فَلَمْ أقْدِرْ، وإنِّي أسْتَوْدِعُكَها، فَرَمى بها في البَحْرِ حتّى ولَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وهو في ذلكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إلى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الذي كانَ أسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قدْ جاءَ بمالِهِ، فَإذا بالخَشَبَةِ الَّتي فِيها المالُ، فأخَذَها لأهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمّا نَشَرَها وجَدَ المالَ والصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الذي كانَ أسْلَفَهُ، فأتى بالألْفِ دِينارٍ، فَقالَ: واللَّهِ ما زِلْتُ جاهِدًا في طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بمالِكَ، فَما وجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الذي أتَيْتُ فِيهِ، قالَ: هلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إلَيَّ بشيءٍ؟ قالَ: أُخْبِرُكَ أنِّي لَمْ أجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الذي جِئْتُ فِيهِ، قالَ: فإنَّ اللَّهَ قدْ أدّى عَنْكَ الذي بَعَثْتَ في الخَشَبَةِ، فانْصَرِفْ بالألْفِ الدِّينارِ راشِدًا.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٢٩١ • [معلق وقد وصله في موضع آخر]

الآخر –الذي رمى له المال– بعد فترة جمَّع ألف دينارٍ أخرى، وجاء وركب السفينة، وبعد أن وصل إليه، قال له: هذه نقودك وأنا أعتذر لأنني لم أستطع المجيء في الموعد، فقال له: ألم ترسل لي شيئًا؟! فلم يُرِد أن يخبره بالقصة –وهذا من شدة إخلاصه–، قال له: ألم أقل لك إني لم أجد سفينة، قال: اذهب فقد قضى الله عنك.

فالشاهد أن الرجل ذهب والآخر معتقد أن الله فعلًا هو الذي قضى عنه الدين؛ لأنه رضي بالله كفيلًا، حتى قال أبو هريرة كنا نتنازع في المسجد حتى تعلو أصواتنا أيهما أفضل؛ الذي رضي بالله كفيلًا، أم الذي كان عنده يقين؟ أيهما كان عنده يقين أعلى؟

- فالشاهد أن المؤمن عندما يتملك اليقين من قلبه فعلًا يتعامل هذه المعاملات. يعلم أن كل شيء ملك الله –سبحانه وتعالى– ولا يحزن أبدًا ولا ييأس أبدًا.

فيقول الله –عز و جل– {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ} [فاطر: ١١] أيًّا كانت الأنثى: سواء كانت من بني البشر أو الحيوانات، أو حتى من الزهور أو أي شيء، {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ} [فاطر: ١١] وإن كان فعل [تضع] للإنسان {وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فاطر: ١١] إذًا الإنسان كي يتحول من تراب إلى نطفة –مرحلة التزاوج– ثم الحمل، ثم يستمر فترة في الحمل، الله –عزَّ وجلَّ– هو الذي يُقدِّر متى ينزل هذا الإنسان، مهما قال الأطباء أن الحمل احتمال أن يكون كذا، أو احتمال أن يكون كذا، لا يعلم ذلك إلا الله –سبحانه وتعالى–، و لا يعلم حياة الإنسان إلا الله –سبحانه وتعالى– {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فاطر: ١١] –سبحانه وتعالى–.

حسنًا بعد أن نزل؛ فترة الحياة {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} [فاطر: ١١] الفترة التي سيمكثها هي {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ} [فاطر: ١١] قيل أن التعمير ستون سنة أو سبعون سنة، كما قال النبي –ﷺ–: (أعمارُ أمتي ما بين الستين والسبعين)[٢]، ربنا يعلم من الذي سيمكث هذا العمر كله، ومن الذي سيموت قبل هذا {وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ} [فاطر: ١١]، ومن الذي سيموت عند سن ثلاث سنوات، أو عشر سنوات أو عشرين سنة أو ثلاثين سنة؛ مهما ازداد عِلم الإنسان لن يعلم موعد الوفاة.

[٢] [عن أنس بن مالك وأبي هريرة:] أعْمارُ أُمَّتِي ما بين السِّتِّينَ إلى السَّبعينَ، و أقلُّهم مَنْ يَجوزُ ذلِكَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ١٠٧٣ • صحيح

هذا شيء استأثر الله -عزَّ وجلَّ- بعلمه -سبحانه وتعالى-، فقد جيء بأحد حاول أن ينتحر تقريبًا سبع عشرة مرة، فتشعر -سبحان الله- {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [آل عمران: ١٤٥] كأنها قبل أن تموت تستأذن؛ فلا يستطيع أحد أن يقول أنا حر أنا سأموت {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا} [آل عمران: ١٤٥] له ميعاد لا يتخلف عنه {وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} [فاطر: ١١].

كل هذا الذي نتحدث عنه، استقصاء هذا في حياتنا يأخذ شهور وسنين ومجلدات، ربنا يقول: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١] -سبحانه وتعالى-.

فالتنوع في فترة البقاء، التنوع في الشكل في الرحم، التنوع في زمن النزول -الوضع-، التنوع في كل هذا الله -عزَّ وجلَّ- هو الذي يُقَدّره، وأصل كل هذا هو التراب.

- وهكذا تكون نفس الفكرة مستمرة معنا؛ أصل واحد يمكن أن ينتج عنه أشياء شتى، وكما قلنا: هذا التنوع قد يكون نافعا وقد يكون ضارا {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١] -سبحانه وتعالى-، وكلمة {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١] -كما قلنا أيضًا- تزيد تعلق القلب بالله -سبحانه وتعالى- أنه لا يصعب شيء على الله.

أن الله -عزَّ وجلَّ- كما كان النبي -ﷺ- يقول: (اللهَ لا يَتعاظمه شيءٌ أعطاه)، (إذا سأل أحدكم فليعزم في المسألة)[٣] النبي -ﷺ- يقول: عندما يطلب شخص من الله لا يقل: (اللهم أعطني إن شئت) لا تقل يا رب لو تشاء أعطني، لا (فلْيعْزِم في المسألة ولْيُلِح في الدعاء فإن الله لا يَتعاظمَه شيءٌ أعطاه)، لا يوجد شيء عظيم على الله، لا أحد يقول هذا كبير جدًا، لا شيء كبير عند ربنا {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١] سهل، هين.

[٣] [عن أبي هريرة:] إذا دَعا أحَدُكُمْ فلا يَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي إنْ شِئْتَ، ولَكِنْ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ ولْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فإنَّ اللَّهَ لا يَتَعاظَمُهُ شيءٌ أعْطاهُ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٦٧٩ • [صحيح] • أخرجه بنحوه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) واللفظ له

{وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [فاطر: ١٢] سورة فاطر مثل سورة الأنعام وسورة الرعد وغيرها من بعض السور التي يكثر فيها الكلام عن قدرة الله، والآيات الكونية.

الكلام عن الآيات الكونية عندما يأتي في القرآن له أكثر من دلالة:

* إما الدلالة على قدرة الله في الخلق.
* أو دلالة هذه المخلوقات على البعث.
* أو الدلالة على عجز الإنسان عن فعل مثل هذه الأشياء.

وقد يُراد بالآيات كل هذا.

- إذًا قد يُراد بهذه الآيات الدلالة على قدرة الله المطلقة، أو الدلالة بهذه المخلوقات على البعث، أو الدلالة على عجز الإنسان عن فعل مثل هذه الأشياء {مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا} [النمل: ٦٠] لا تستطيع أنت أن تفعل مثل هذا.

فتكون قدرة الله المطلقة دلالة على البعث، أو عجز الإنسان، أو الاستفادة من هذه المخلوقات في حياة الإنسان؛ لأن الذي خلق الخلق والمخلوقات هو الذي خلق الإنسان.

فقد يستفيد الإنسان من هذه الأشياء في حياته المعنوية، كما أن الله -عزَّ وجلَّ- جعل سننا في الخلق، كذلك يوجد سنن في حياة الإنسان المعنوية، كيف؟!

- كما خلق الله -سبحانه وتعالى- الظلمات والنور، خلق الإيمان والكفر؛ فالكفر أشبه بالظلمات، والإيمان أشبه بالنور؛ لذلك النور دائمًا في القرآن يأتي مفردًا؛ لأنه حق واحد، والظلمات دائمًا في القرآن تأتي جمعًا؛ لأن الكفر {طَرَائِقَ قِدَدًا} [الجن: ١١].

والحل لتذهب الظلمات ليس أن نغضب ونصرخ ونقول اذهبي يا ظلمات! الحل لكي تذهب الظلمات ما الذي يحدث؟ أن يأتي النور فقط!

بعد أن يأتي النور {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ} ما الذي سيحدث؟ {وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} [الإسراء: ٨١] كما قلنا في آخر سبأ.

- إذًا الاستفادة من هذه المخلوقات، وهذه نقطة موجودة بكثرة جدًا في القرآن، يصعب إحصاؤها في القرآن، حتى أن الأقسام تأتي بقسم شيء مخلوق مادي على سنة معنوية من السنن مثلًا: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق: ١-٤] يقسم الله -عزَّ وجلَّ- بحفظ السماوات على اتساعها على أن الله -عزَّ وجلَّ- يحفظ الإنسان، مسألة الحفظ.
- كذلك الصراع بين الماء والنار {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ} [الرعد: ١٧].

إذًا الآيات الكونية التي تذكر في القرآن لها أكثر من دلالة؛ قد يُراد بها كل هذه الأشياء، من هذه الدلالات -عندما تأتي آيات كونية- أننا من الممكن أن نُسقِط هذه الآيات على حياتنا، أن نستفيد من هذه الأشياء.

وبالفعل بدأ بعض الناس يقولون إنه حتى صفات الجمادات وصفات هذه الأشياء من الممكن أن يستفيد الإنسان منها في حياته، من الممكن أن يوجد شخص شخصيته قوية مثل معدن كذا، أو آخر -والعياذ بالله- ممكن تصل به الدناءة أنه يصل إلى طريقة تفكير حيوانية، مثل حيوان كذا، لذلك قالوا مثل نفس بهيمية أو سبعية أو حيوانية أو...

لذلك ربنا -سبحانه وتعالى- عندما أتى بلفظ عمل السيئات مع الإنسان المسرف في السيئات؛ أتى بلفظ للحيوانات، قال الله -عزَّ وجلَّ- في سورة الجاثية {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية: ٢١].

هذا الاجتراح؛ السباع والكلاب عندما تأكل فريسة لا تريد أحدًا أن يشاركها فيها، لا تأكل على قدر ما يكفيها من اتجاه واحد، لا تقطع جزء مثلًا و تأكله، بعد أن تقتل فريستها تنهش في كل الأجزاء، تجرّح فيها حتى تفسدها، فلا أحد يأكل معها، حتى إذا لم تكن ستأكلها كلها.

- هذا دلالة على نهم عندها وطمع، فالإنسان -والعياذ بالله- عندما يفجُر في المعاصي، عندما يفعل المعاصي تجده يسرف، يفجُر في المعاصي، فالله هنا جاء بلفظ [اجترحوا]، كما قال: {إن هم إلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٤٤].

هذه مقدمة حتى نفهم منها التنوع الذي جاء في هذه السورة تحديدًا، وإن كلمة {وَمَا يَسْتَوِي} جاءت هنا في السورة أكثر من مرة {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ} [فاطر: ١٢] {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ} [فاطر: ١٩ - ٢٢] كما سيأتينا إن شاء الله.

- فبعض العلماء قال: المقصود من هذه الآيات إسقاط هذه الآيات على المؤمن والكافر، والحق و الباطل، لذلك الإمام الزمخشري مثلًا قال: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [فاطر: ١٢]، قال المقصود بالعذب الفرات هذا الإنسان المؤمن، والملح الأجاج هذا الإنسان الكافر، وإن المؤمن طيب سهل مستساغ، قال النبي ﷺ: (إنَّما حُرِّمت النَّارِ على كلِّ هيِّنٍ ليِّنٍ سهلٍ قريب)[٤].

{سَائِغٌ شَرَابُهُ} [فاطر: ١٢] السائغ هذا الذي ينزل يجري بدون صعوبة، الثاني فيه تَجَرُّع {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ} [إبراهيم: ١٧] غير مستساغ، لا يستطيع بلعه، فالمؤمن سهل نافع للناس، عذب خالص من الشوائب والكفر.

فقالوا كما ربنا خلق مخلوقات وبينها تضاد -كذلك كأن هذه أيضًا تصبير للنبي ﷺ-؛ لأننا لدينا شوط طويل بدأ من قول الله -عزَّ وجلَّ-: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨]

النبي ﷺ حزين أن هناك أناس يكفرون؛ فربنا يقول له هذه سُنة ربنا في الكون، يوجد تنوع، يوجد مخلوقات كهذا وهناك مخلوقات كهذا.

كذلك الناس يوجد منهم المؤمن ويوجد منهم الكافر، منهم السهل ومنهم الصعب، منهم العذب الفرات، ومنهم الملح الأجاج، حتى في الطبائع الشخصية، يوجد شخص شديد، و آخر سهل. فبعضهم

---

[٤] [عن أبي هريرة:] تَحرُمُ النارُ على كلِّ هيِّنٍ ليِّنٍ سهلٍ قريبٍ
العقيلي (ت ٣٢٢)، الضعفاء الكبير ٣٢٣/٤ • [فيه] وهب بن حكيم مجهول بالنقل ولا يتابع على حديثه ويروى من غير هذا الوجه بإسناد صالح • أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣٢٣/٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣٥٦/٢) واللفظ لهما، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٧٢٥) باختلاف يسير.

قال: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [فاطر: ١٢] المقصود هنا المؤمن والكافر.

إذًا ما علاقة {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [فاطر: ١٢]؟ هذا يوجد به مدح للبحر الملح الأجاج؛ أننا نستفيد منه، فهل المقصود أن الكافر أيضًا نستفيد منه؟

- بعضهم قال: لا، ولكن معنى هذه الآية؛ كأن الله يقول: الكافر مثل البحر الملح الأجاج، بل الملح الأجاج أفضل منه لأنه نافع للناس، أما هو فلا ينفع الناس.

مثل بالضبط قول الله -عزَّ وجلَّ-: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [البقرة: ٧٤] بعد أن شبهها ربنا بالحجارة، ماذا قال بعد هذا في تكملة الآية؟ {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [البقرة: ٧٤] أتى بأنواع الحجارة أن منها الذي يهبط من خشية الله، والذي يتشقق، والذي يتفجر منه الماء، فقال: حتى الحجارة أفضل منهم؛ فكأن الله بعد أن شبه الكافر بالملح الأجاج واستقر التشبيه -وهذا شيء من الممكن أن ينفر منه الإنسان- فربنا قال: هذا البحر حتى الملح الأجاج فيه منافع ليست عند الكافر.

- وبعضهم قال: لا، المعنى أن الموضوع ليس له علاقة بالمؤمن والكافر، الموضوع أنه كما خلق الله الإنسان الأول من تراب واحد، ومواد خلق الإنسان واحدة، الآية التي قبلها {خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} [فاطر: ١١] لكن الإنسان جاء متنوع في الشكل وفي الأخلاق وفي كل شيء، حتى أن لكل شخص بصمة خاصة به.

_فكذلك بالرغم أن البحر ماء، والأنهار ماء إلا أنهما مختلفان؛ فهذا أيضًا استكمال دلالة قدرة الله أن أصل الشيء قد يكون واحد لكن الله قادر أن ينوع هذا، مثل بالضبط الآية في سورة الرعد {يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ}[الرعد: ٤] هي طينة واحدة وماء واحد الذي يغذيها {يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ}[الرعد: ٤] لكن ماذا؟

{وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ}[الرعد: ٤]؛ هذا لا يستطيع فعله غير الله، فالتفاضل هذا قدرة ربنا -سبحانه وتعالى- المطلقة.

- وبعضهم قال: المقصود فعلًا المؤمن والكافر، وأن الكافر له منافع دنيوية؛ يستفيد منه الإنسان في المنافع الدنيوية، لكن ليس له منافع في الآخرة، وقالوا إن {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ

حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [فاطر : ١٢] قالوا: هذه هي المنافع الدنيوية للكافر، وإن الإنسان المسلم سيتعامل مع الكافر في المنافع الدنيوية، أي يستفيد منه في الدنيا.

- لذلك إن الله -عزَّ وجلَّ- لا يظلم أحدًا مثقال ذرة سواء مسلم أو كافر، فالكافر عندما يعمل خيرًا للناس يُعْطَى به في الدنيا؛ يأخذ أجره في الدنيا، ويلقى الله -عزَّ وجلَّ- ليس له شيء.

فالمنافع الدنيوية التي يقدمها الكافر للناس أشبه بالمنافع التي يستفيد منها الإنسان المسلم من البحر الملح الأجاج.

- وبعضهم قال أيضًا: إن من جمال هذا التشبيه أن من البحار الملح الأجاج أكثر من الأنهار، وأن هذا دلالة أن الكفر دائمًا سيكون أكثر.

أي أن نسبة البحر الملح الأجاج أكبر بكثير من الأنهار؛ هذا دلالة على كثرة انتشار الكفر {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنعام: ١١٦].

- وبعضهم تكلم في هذه الآيات كثيرًا في الإشارات في مسألة الإيمان والكفر، ودلالة العذب والفرات على الإيمان والملح الأجاج، وقالوا إشارات وهذا ما يسميه بعض العلماء -التفسير الإشاري- أو التفسير بالقياس.

ما هو التفسير الإشاري أو التفسير بالقياس؟ أي أن الله -عز وجل- أعطى لك شيء وأنت تقيس عليه شيء شبيه له.

وبعد أن قال الله -عز وجل- {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [فاطر: ١٢] قدرة الله -عز وجل- أن يضع المنافع في الأشياء المختلفة، كما جعل الملائكة {رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ} [فاطر: ١].

- وكذلك أحيانًا -سبحان الله- هذه أيضًا نقطة في الاختلاف لو قلنا إن البحر الملح الأجاج والعذب الفرات، هذا اختلاف طبائع الناس الشخصية، أحيانًا تجد -سبحان الله- أناسًا يحبون هذه المعاملة؛ لا يأتون إلا بالشدة، وآخرين يحبون المعاملة اللينة، تجد حتى إن الطبائع الشخصية؛ شخص شديد وتجد أناسًا يحبون هذه الشدة، وهناك أُناس لا يحبون إلا المعاملة اللينة. فكلمة {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا} [فاطر: ١٢] إن هذا التنوع بين الناس نحن من نستفيد منه.

لذلك كثير من العلماء عندما تكلم في مسائل اختلاف العلماء في الشرع، بعضهم قال: بسبب تصحيح الدليل؛ أن يكون أحدهم لم يبلغه الدليل، أو أن أحدهم صحح حديث وضعَّف حديث، أو... أو...

- وبعضهم عندما ذكر أسباب اختلاف العلماء قال إنه قد يميل أحدهم للشدة، فدائمًا يختار أقوال معينة؛ هو طبيعته النفسية هكذا، وآخر يميل للأحوط، وآخر يميل لليسر، هذه طبيعة شخصية قلما يستطيع الإنسان أن يتخلص منها في اختياراته الفقهية، فالإنسان يجب أن يكون حذرًا في هذا.

فالشاهد {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا} [فاطر: ١٢] مهما تنوعت الأشياء ربنا -سبحانه وتعالى- يضع منافع في ذلك.

* أو بعضهم قال {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [فاطر: ١٢] أن الله قادر على استخراج المنافع من الكافر سواء أنه يُسلم، أو أن هذا الكافر والفاجر ينصر الدين وهو كافر وفاجر، (إنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بالرجُلِ الفاجرِ)[٥]، فمثلًا فرعون عندما جمَّع السحرة جمعهم من كل مكان في مصر، لماذا؟ لكي يناظرهم سيدنا موسى، وأسلموا، لو كان سيدنا موسى هو من فعل ذلك، كيف كان سيجمع السحرة؟ كيف يدور في مصر كلها؟! لأنه قال {وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ} [الشعراء: ٣٦] في كل مصر كلها {حَاشِرِينَ} [الشعراء: ٣٦]، من الذي جمع له السحرة؟ فرعون؛ فقام بخدمة جليلةً جدًا للدعوة بالرغم أنه مات كافرًا.

- فكذلك أحيانًا يُسلط الله -عزَّ وجلَّ- جند الغباء على بعض الكفار يجعلهم يفعلون أشياء تفيد المسلمين.

---

[٥] [عن أبي هريرة:] شَهِدْنا مع رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقالَ لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَدَّعِي الإسْلامَ: هذا مِن أهْلِ النّارِ، فَلَمّا حَضَرَ القِتالُ قاتَلَ الرَّجُلُ قِتالًا شَدِيدًا فأصابَتْهُ جِراحَةٌ، فقِيلَ: يا رَسولَ اللَّهِ، الذي قُلْتَ له إنَّه مِن أهْلِ النّارِ، فإنَّه قدْ قاتَلَ اليومَ قِتالًا شَدِيدًا وقدْ ماتَ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: إلى النّارِ، قالَ: فَكادَ بَعْضُ النّاسِ أنْ يَرْتابَ، فَبيْنَما هُمْ على ذلكَ، إذْ قيلَ: إنَّه لَمْ يَمُتْ، ولَكِنَّ به جِراحًا شَدِيدًا، فَلَمّا كانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصْبِرْ على الجِراحِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَأُخْبِرَ النبيُّ ﷺ بذلكَ، فَقالَ: اللَّهُ أكْبَرُ، أشْهَدُ أنِّي عبدُ اللَّهِ ورَسولُهُ، ثُمَّ أمَرَ بلالًا فَنادى بالنّاسِ: إنَّه لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وإنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفاجِرِ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٠٦٢ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٣٠٦٢) واللفظ له، ومسلم (١١١)

ثم يقول الله -عزَّ وجلَّ- {وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [فاطر: ١٢] أنت ترى أثر هذه النعمة، نعمة البحار ونعمة التنقل، {وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ} [فاطر: ١٢] يَمْخر الشيء: أي يشقه، ترى السفن تشق البحار وتسير فيها {لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [فاطر: ١٢] إذًا أهم غرض أساسي لهذه النعم شكر نِعَم الله -عزَّ وجلَّ-.

لأن الإنسان مع طول إلف النعمة واعتيادها ينسب الأشياء للأسباب؛ نعم السفينة على الماء لأن الكثافة والحجم والخصائص الفيزيائية للماء تجعلها تطفو؛ فالإنسان اكتشف هذا...؛ لكن من الذي وضع هذه الخصائص؟!

عندما يستفيد الإنسان من الحديد أو النحاس، ويكتشف مثلًا شيئًا مثل السبيكة، أو يكتشف أي شيء، فإنه ينسب الفضل لنفسه.

مَن الذي أعطى لك العقل لكي تكتشف؟! ومَن الذي خلق هذه الأشياء؟! ومَن الذي وضع فيها هذه الخصائص؟! بل مَن الذي جعل تلك الخصائص ثابتة؟! تخيل لو أن خصائص الماء متغيرة؟ اليوم نركب البحر غدًا نخاف.

تخيل لو كانت خصائص المواد تتغير، تخيل لو الحديد ليس صلبًا؛ اليوم صلب غدًا لا نعلم.

من رحمة ربنا -عز وجل- أنه جعل الخصائص ثابتة لا تتغير، لو كانت الخصائص متغيرة لم تقم حياة للناس، يخافون أن يبنوا لكي لا يقع البيت، تخيل لو أن الحديد غدًا أصبح سائلًا ولم يعد صلبًا؟ وتخيل أن الماء لم يستطع حمل السفن فسقطت؟

فإذًا رؤية هذه الأشياء تستدعي الشكر من الإنسان {وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [فاطر: ١٢] وأنت تطلب فضل ربنا لا تنسى أن تشكر الله -عز وجل- على نعمه {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[فاطر: ١٢].

{يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} [فاطر : ١٣] هذا على مستوى الأرض، مستوى البحار و السفن، على مستوى السماء حركة الليل و النهار، هذه لا يملكها إلا الله -عزَّ وجلَّ- {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ} [البقرة : ٢٥٨] هذا التداخل

بين الليل والنهار وهذا الصراع أيضًا قيل هذا أشبه بصراع الحق و الباطل، وأن صراع الحق والباطل سيكون متداولًا.

عندما سأل هرقل أبا سفيان: مَن الذي ينتصر؟ فقال: إن الحرب بيننا وبينه سجال[٦]، هذه من علامات الصراع بين الحق والباطل، هذه سُنَّة، أن الصراع دائمًا متداول {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل

---

[٦] [عن أبي سفيان بن حرب:] أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِن قُرَيْشٍ، وكَانُوا تُجَّارًا بالشَّأْمِ في المُدَّةِ الَّتِي كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فأتَوْهُ وهُمْ بإيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ في مَجْلِسِهِ، وحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ ودَعَا بتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أيُّكُمْ أقْرَبُ نَسَبًا بهذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أنَّه نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أبو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أنَا أقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أدْنُوهُ مِنِّي، وقَرِّبُوا أصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لهمْ إنِّي سَائِلٌ هذا عن هذا الرَّجُلِ، فإنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْلَا الحَيَاءُ مِن أنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عنْه. ثُمَّ كانَ أوَّلَ ما سَأَلَنِي عنْه أنْ قَالَ: كيفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هو فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهلْ قَالَ هذا القَوْلَ مِنكُم أحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهلْ كانَ مِن آبَائِهِ مِن مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لا قَالَ: فأشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: أيَزِيدُونَ أمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهلْ يَرْتَدُّ أحَدٌ منهمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ ما قَالَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، ونَحْنُ منه في مُدَّةٍ لا نَدْرِي ما هو فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: ولَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شيئًا غَيْرُ هذِه الكَلِمَةِ، قَالَ: فَهلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكيفَ كانَ قِتَالُكُمْ إيَّاهُ؟ قُلْتُ: الحَرْبُ بيْنَنَا وبيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا ونَنَالُ منه. قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يقولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وحْدَهُ ولَا تُشْرِكُوا به شيئًا، واتْرُكُوا ما يقولُ آبَاؤُكُمْ، ويَأْمُرُنَا بالصَّلَاةِ والزَّكَاةِ والصِّدْقِ والعَفَافِ والصِّلَةِ. فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ له: سَأَلْتُكَ عن نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أنَّه فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذلكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ في نَسَبِ قَوْمِهَا. وسَأَلْتُكَ هلْ قَالَ أحَدٌ مِنكُم هذا القَوْلَ، فَذَكَرْتَ أنْ لَا، فَقُلْتُ: لو كانَ أحَدٌ قَالَ هذا القَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ. وسَأَلْتُكَ هلْ كانَ مِن آبَائِهِ مِن مَلِكٍ، فَذَكَرْتَ أنْ لَا، قُلْتُ فلوْ كانَ مِن آبَائِهِ مِن مَلِكٍ، قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أبِيهِ، وسَأَلْتُكَ، هلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ ما قَالَ، فَذَكَرْتَ أنْ لَا، فقَدْ أعْرِفُ أنَّه لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ علَى النَّاسِ ويَكْذِبَ علَى اللَّهِ. وسَأَلْتُكَ أشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وهُمْ أتْبَاعُ الرُّسُلِ. وسَأَلْتُكَ أيَزِيدُونَ أمْ يَنْقُصُونَ، فَذَكَرْتَ أنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وكَذلكَ أمْرُ الإيمَانِ حتَّى يَتِمَّ. وسَأَلْتُكَ أيَرْتَدُّ أحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أنْ لَا، وكَذلكَ الإيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ. وسَأَلْتُكَ هلْ يَغْدِرُ، فَذَكَرْتَ أنْ لَا، وكَذلكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ. وسَأَلْتُكَ بما يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أنَّه يَأْمُرُكُمْ أنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ولَا تُشْرِكُوا به شيئًا، ويَنْهَاكُمْ عن عِبَادَةِ الأوْثَانِ، ويَأْمُرُكُمْ بالصَّلَاةِ والصِّدْقِ والعَفَافِ، فإنْ كانَ ما تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وقدْ كُنْتُ أعْلَمُ أنَّه خَارِجٌ، لَمْ أكُنْ أظُنُّ أنَّه مِنكُمْ، فلوْ أنِّي أعْلَمُ أنِّي أخْلُصُ إلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، ولو كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عن قَدَمِهِ. ثُمَّ دَعَا بكِتَابِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الذي بَعَثَ به دِحْيَةُ إلى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إلى هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ فَإِذَا فيه بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِن مُحَمَّدٍ عبدِ اللَّهِ ورَسولِهِ إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ علَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أمَّا بَعْدُ، فإنِّي أدْعُوكَ بدِعَايَةِ الإسْلَامِ، أسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثْمَ الأرِيسِيِّينَ و {يَا أهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بيْنَنَا وبيْنَكُمْ أنْ لا نَعْبُدَ إلَّا اللَّهَ ولَا نُشْرِكَ به شيئًا ولَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فإنْ تَوَلَّوْا فَقُولوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ} قَالَ أبو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ ما قَالَ، وفَرَغَ مِن قِرَاءَةِ الكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ

عمران: ١٤٠]، من الحكم التي ذكرها العلماء، لماذا دائمًا الحرب سجال؟ لماذا لا ينتصر المسلمون دائمًا؟ إذا انتصر المسلمين دائمًا، كانت الناس كلها ستسلم، لكن لابد من ابتلاء، أن يمر الدين بمراحل ضعف، عندما يمر الدين بمراحل ضعف هنا تظهر حقيقة الانتماء، أنت تنتمي للإسلام لكي تعبد الله – عزَّ وجلَّ– أم لكي تأخذ مغنم؟ {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ} [الحج: ١١] قيل يعبد الله على حرف من المعاني الجميلة التي ذُكِرَت أنه عندما يذهب للقتال يقف على حرف الجيش {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ} [الحج: ١١]، هو يقف على الحرف أو الك الطرف، فإذا انتصر الجيش يدخل في المنتصف الله أكبر، وعندما ينهزم الجيش يقول: أنا أصلًا لست معهم، ويلتفت وينصرف. فمداولة الأيام لكي يظهر الإنسان الصادق من الإنسان الكاذب.

{يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [فاطر : ١٣] وفعل [يولج] بصيغة المضارع، من رحمة الله أنه ليس مثلًا يكون نهار وفجأة يأتي الليل، ثم ليل وفجأة يأتي النهار، لا؛ الموضوع فيه نوع من التدريج، بمعنى انظر إلى منظر غروب الشمس وهي تغرب تدريجيًا، أو الشمس وهي تشرق تدريجيًا فذلك من رحمة الله –عزَّ وجلَّ–. وهذا أيضًا سُنَّة، أن التغيير دائمًا يأتي على مراحل من التدريج.

الصَّخَبُ وارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وأُخْرِجْنَا، فَقُلتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّه يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ. فَما زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّه سَيَظْهَرُ حتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلَامَ. وكانَ ابنُ النَّاظُورِ، صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وهِرَقْلَ، سُقُفًّا على نَصَارَى الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ، أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدِ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ، قَالَ ابنُ النَّاظُورِ: وكانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ في النُّجُومِ، فَقَالَ لهمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ في النُّجُومِ مَلِكَ الخِتَانِ قدْ ظَهَرَ، فمَن يَخْتَتِنُ مِن هذِهِ الأُمَّةِ؟ قالوا: ليسَ يَخْتَتِنُ إلَّا اليَهُودُ، فلا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، واكْتُبْ إلى مَدَايِنِ مُلْكِكَ، فَيَقْتُلُوا مَن فيهم مِنَ اليَهُودِ. فَبيْنَما هُمْ علَى أمْرِهِمْ، أُتِيَ هِرَقْلُ برَجُلٍ أرْسَلَ به مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عن خَبَرِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أمُخْتَتِنٌ هو أمْ لَا، فَنَظَرُوا إلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أنَّه مُخْتَتِنٌ، وسَأَلَهُ عَنِ العَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هذا مُلْكُ هذِهِ الأُمَّةِ قدْ ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إلى صَاحِبٍ له بروميَةَ، وكانَ نَظِيرَهُ في العِلْمِ، وسَارَ هِرَقْلُ إلى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حتَّى أتَاهُ كِتَابٌ مِن صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ علَى خُرُوجِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّهُ نَبِيٌّ، فأذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ في دَسْكَرَةٍ له بحِمْصَ، ثُمَّ أمَرَ بأبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يا مَعْشَرَ الرُّومِ، هلْ لَكُمْ في الفلاحِ والرُّشْدِ، وأنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبَايِعُوا هذا النبيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وأَيِسَ مِنَ الإيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وقَالَ: إنِّي قُلتُ مَقالَتِي آنِفًا أخْتَبِرُ بهَا شِدَّتَكُمْ علَى دِينِكُمْ، فقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا له ورَضُوا عنْه، فَكانَ ذلكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧ • [صحيح]

نحن نعتقد في هذا الزمن الذي نعيشه أن الخلافة الإسلامية سقطت ١٩٢٤ميلادي، نحن نعتقد أنه حتى ١٩٢٤ميلادية لم يكن هناك أي أخطاء وفجأة سقط المسلمون، ونحتاج أحدًا يخرجنا فجأة، لا؛ الموضوع يمر بمراحل.

ظلت الخلافة الإسلامية سنوات وقرون تمر بمراحل ضعف وانهيار كثيرة جدًا، ولكي تنهض لابد أن تنهض تدريجيًا من مجموع بذل لأناس كثير جدًا، وتراكم جهود لسنوات.

- مشكلة أن العقل الذي تربى على انتظار صلاح الدين أو انتظار المهدي مشكلة خطيرة جدًا.

- لذلك أعجبني كاتب له كتاب جميل جدًا اسمه "هكذا ظهر جيل صلاح الدين" لدكتور ماجد الكيلاني، كان يقول كلمة جميلة، أولًا اختار اسم الكتاب ليس (هكذا ظهر صلاح الدين)، وإنما هكذا ظهر؟ جيل... يقول إن التغيير يكون بوجود جيل وليس بوجود شخص، وقال –في المقدمة– أنه استقرأ ما كُتب في صلاح الدين فوجد آفة خطيرة جدًا أن كل من يتكلم، يتكلم عن الصفات الشخصية لصلاح الدين فقط، فيقول هذا يؤدي إلى مشكلتين تربويتين خطيرتين جدًا في المجتمع؛ المشكلة الأولى بالنسبة لعامة الناس أنهم ينتظرون صلاح الدين؛ فيعتقدون أن دورنا هو فقط الانتظار، هو لا يستطيع أن يفهم أن كل شيء يفعله هو خطوة في التغيير؛ هو لبنة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ. وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ)[٧]، النبي ﷺ يقول: (فأنا اللبنة) في موضع البناء على مدار التاريخ النبي ﷺ يقول عن نفسه (موضع لبنة)، طوبة في قصر التغيير في بناء التوحيد على مدار التاريخ.

فيقول يؤدي إلى مشكلتين:

المشكلة الأولى: بالنسبة للناس أنه يزرع عندهم السلبية والانتظار.

[٧] [عن أبي هريرة:] إنَّ مَثَلِي ومَثَلَ الأنْبِياءِ مِن قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنى بَيْتًا فأحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ، إلّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِن زاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النّاسُ يَطُوفُونَ به، ويَعْجَبُونَ له، ويقولونَ هَلّا وُضِعَتْ هذِه اللَّبِنَةُ؟ قالَ: فأنا اللَّبِنَةُ وأنا خاتِمُ النبيِّينَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٥٣٥ • [صحيح]

المشكلة الثانية: عند الشخص القائد نفسه فهو يعتقد أنه هو المغير الأساسي، وأن الناس لابد أن تخدمه وتعيش في كنفه، والحقيقة أنه واحد من الناس.

فصلاح الدين عنده مميزات فاق بها غيره، وصفات شخصية ميزته عن غيره فعلًا وهذا موجود، الفروقات الفردية موجودة بين البشر، حتى المخلوقات الأخرى بينها تفاضل؛ لكن لابد أن يكون هناك جيل؛ ويخرج منه شخص أفضل منه.

فهنا مسألة سُنة التدرج {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} [فاطر : ١٣] الكون كله يتحرك، والذي يُسخر ويُدبر هذه الحركة هو الله.

وكلمة {يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} [فاطر : ١٣] أي لن تظل تجري هكذا بإرادتها، ربنا -سبحانه وتعالى- يُقَدِّر لها متى تنتهي وتتوقف، وقد أخبرنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الشمس تستأذن يوميًا قبل أن تخرج حتى يأتي يوم تستأذن فيقال لها: لا، ارجعي من حيث أتيتِ[٨].

بعد صلاة الفجر عندما تستحضر وأنت ترى منظر الشروق أن الشمس الآن تستأذن، تخيل عندما تتعامل مع الكون بهذا القلب.

إن هذه المخلوقات العظيمة ملك لله -سبحانه وتعالى- ليس معنى أنها مُسخرة وأن الكون قائم على الأسباب و المسببات أنها خرجت عن تدبير ربنا -سبحانه وتعالى-.

---

[٨] [عن عبدالله بن عمرو:] إنَّ أوَّلَ الآياتِ خُروجًا طُلوعَ الشَّمسِ من مغرِبِها وخروجُ الدّابَّةِ ضُحًى فأيَّتُهُما ما كانَت قبلَ صاحبتِها فالأُخرى على إثرِها ثمَّ قالَ عبدُ اللَّهِ وَكانَ يقرأُ الكُتُبَ: وأظنُّ أولاها خروجًا طلوعَ الشَّمسِ من مَغرِبِها وذلِكَ أنَّها كلَّما غرَبت أتَت تحتَ العَرشِ فسجَدت واستأذَنَت في الرُّجوعِ فأُذِنَ لَها في الرُّجوعِ حتّى إذا بَدا للَّهِ أن تطلُعَ من مغرِبِها فعَلَت كما كانَت تفعلُ أتَت تحتَ العرشِ فسَجدَت فاستأذنت في الرُّجوعِ فلم يُردَّ عليها شيءٌ ثمَّ تَستأذنُ في الرُّجوعِ فلا يردُّ عليها شيءٌ ثمَّ تستأذنُ فلا يردُّ علَيها شيءٌ حتّى إذا ذَهَبَ مِنَ اللَّيلِ ما شاءَ اللَّهُ أن يَذهبَ وعَرفت أنَّهُ إن أُذِنَ لَها في الرُّجوعِ لم تدرِكِ المشرقَ قالَت ربِّ ما أبعدَ المشرِقَ من لي بالنّاسِ حتّى إذا صارَ الأفُقُ كأنَّهُ طوقٌ استأذَنَت في الرُّجوعِ فيقالُ لَها من مَكانِكِ فاطلُعي فطلَعَت على النّاسِ من مَغرِبِها ثمَّ تلا عبدُ اللَّهِ هذِهِ الآيةَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْرًا

أحمد شاكر (ت ١٣٧٧)، مسند أحمد ٩٨/١١ • إسناده صحيح

_لذلك يوشع بن نون عندما نظر إلى الشمس قال: (أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا)[٩] فوقفت الشمس عن الغروب حتى انتهى القتال؛ لأنه يقاتل في آخر ساعة، ويوم الجمعة والسبت محرم فيه القتال، ويريد أن ينهي القتال في هذا اليوم، قال: (اللهم احبسها علينا) فحُبِست الشمس ليوشع بن نون.

{وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ} [الكهف : ١٧] ليس معنى أن الكون قائم على الأسباب والمسببات والتسخير أنه يخرج عن تدبير ربنا – سبحانه وتعالى–.

{كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ } [فاطر :١٣] [ذلكم] على ماذا تعود؟ على كل الأفعال من أول السورة؛ هو فاطر السماوات و الأرض، ووزَّع الأرزاق، وخلق، وحذَّر المسلمين، وأرسل الرسل، وأرسل الرياح، ويُعز المسلمين، و{خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ}[فاطر :١١]، { وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فاطر :١١]، وخلق البحار وفرَّق بينها، وجعل فيها الخصائص المميزة لكل منها، يولج الليل... كل هذا فعله الله –عز وجل–، ماذا فعلتم أنتم؟

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ} {له الملك} {وما يملكون} انظر هو سبحانه {له الملك} وأنتم {مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} [فاطر : ١٣]. القطمير؛ هي القشرة حول النَّواة؛ لا يملكونها، لا يخلقونها ابتداءً ولا يستطيعون أن يملكوها بعد ذلك.

الملك لله –سبحانه وتعالى– {وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج : ٧٣].

---

[٩] [عن أبي هريرة:] غزا نَبِيٌّ مِنَ الأنْبِياءِ، فَقالَ لِقَوْمِهِ: لا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأةٍ، وهو يُرِيدُ أنْ يَبْنِيَ بها؟ ولَمّا يَبْنِ بها، ولا أحَدٌ بَنى بُيُوتًا ولَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَها، ولا أحَدٌ اشْتَرى غَنَمًا أوْ خَلِفاتٍ وهو يَنْتَظِرُ وِلادَها، فَغَزا فَدَنا مِنَ القَرْيَةِ صَلاةَ العَصْرِ أوْ قَرِيبًا مِن ذلكَ، فَقالَ لِلشَّمْسِ: إنَّكِ مَأْمُورَةٌ وأنا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْها عَلَيْنا، فَحُبِسَتْ حتّى فَتَحَ اللَّهُ عليه، فَجَمع الغَنائِمَ، فَجاءَتْ يَعْنِي النّارَ لِتَأْكُلَها، فَلَمْ تَطْعَمْها فَقالَ: إنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبايِعْنِي مِن كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بيَدِهِ، فَقالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَلْيُبايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أوْ ثَلاثَةٍ بيَدِهِ، فَقالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَجاؤُوا برَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوها، فَجاءَتِ النّارُ، فأكَلَتْها ثُمَّ أحَلَّ اللَّهُ لَنا الغَنائِمَ رَأى ضَعْفَنا، وعَجْزَنا فأحَلَّها لَنا.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣١٢٤ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧) واللفظ له

{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}[فاطر : ١٣].

لكي تشعر بهذه المعاني لابد أن تعيش الجو الذي عاشه الصحابة فتستفيد منها، المعاني العظيمة لا يشعر بها الإنسان إلا على قدر احتياجها، لذلك مثلًا إذا أخذنا درسًا عن الرضا بقضاء الله، وأن ما من مصيبة تنزل إلا وفيها صبر وسكينة مع نفس المصيبة {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥] ليس بعد العسر{إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٦]، من عنده مصيبة هو الذي سيشعر بقيمة هذا الكلام، وهو يحتاج هذا الكلام أن ينزل على قلبه بردًا وسلامًا، كأنه يقول لك: كنت أحتاج هذا الكلام، يمكن أن يكون شخص يحتاج الكلام، والباقي غير مُقَدِّر قيمة هذا الكلام.

- فالقرآن نَزل في واقع حي، واقع صراع بين حقٍ وباطل، واقع سورة فاطر من استضعاف؛ والمسلمين لا يملكون شيئًا، وبعد سورة سبأ، وقد قلنا في سورة سبأ أنهم يملكون كل العدة والعتاد، وأنت تحزن على كثرة مَن ساروا في طريق الكفر وخُدعوا وزُين لهم سوء أعمالهم؛ نزول هذه المعاني على قلبك يصبرك، أنت تحتاج إلى هذه المعاني.

قال الله -عزَّ وجلَّ- {كَذَلِكَ} أي نزل القرآن مفرقًا {لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} [الفرقان: ٣٢] النبي ﷺ كان يحتاج أن يسمع هذه الكلمات.

- فهنا ربنا -عز وجل- يقول {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}[فاطر : ١٣] هل يُعقل أن الدول العظمى هذه لا تملك قطميرًا في الكون؟! نعم؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- هو الذي أعطاهم، وهو الذي يقدر أن ينزع كل ذلك منهم في لحظة، الله قادر على ذلك؟ نعم الله قادر على ذلك، {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} [محمد: ٤].

ـ {مَا يَمْلِكُونَ مِنْ} حتى {قِطْمِيرٍ} الذي هو أتفه شيء؛ لا يملكونه.

{إِنْ تَدْعُوهُمْ} [فاطر: ١٤] إن طلبت منهم ما يُطلب من الله -عز وجل-، هنا المقصود أنه لا يجوز أن تطلب من البشر الشيء الذي لا يُطلب إلا من الله -سبحانه وتعالى-، يمكن أن تطلب من شخصٍ ما شيئًا هو يستطيع أن يفعله، وربنا -عز وجل- أذن لك في ذلك، أما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يُطلب إلا من الله.

{إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا} [فاطر: ١٤] هنا الكلام عن الأصنام، لن تسمع لأنك تُكلم حجرًا، {وَلَوْ سَمِعُوا} [فاطر: ١٤] أي لو ربنا -سبحانه وتعالى- خلق للأصنام السمع، أو لو أن من تدعونهم يسمعون فعلًا {مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} [فاطر: ١٤] وهذه من أكثر المشاهد حزنًا وغمًا للكفار -والعياذ بالله-؛ مشهد الحسرة عندما يجد أنه أفنى عمره في شرك معين، ثم يوم القيامة يتبرأ منه المعبود؛ الإله الذي عبده يتبرأ منه، تخيل عندما تتبرأ الأصنام من المشركين يوم القيامة، أو الملائكة تتبرأ منهم، أو سيدنا عيسى.

*تخيل المليارات من النصارى يتجمعون في صعيد واحد، وربنا -عز وجل- يسأل سيدنا عيسى -عليه السلام- أمامهم جميعًا ويقول له {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ} [المائدة: ١١٦] تخيل كلمة {سبحانك} عندما يقولها سيدنا عيسى؛ كيف سيكون شعورهم؟! لم يعد هناك أمل، أفنى عمره في عبادة باطلة، الحمد لله على نعمة الإسلام.

* لذلك يُروي في الآثار أن سيدنا عمر عندما مر على راهب في الصومعة مجتهدًا في العبادة فقال {عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ} [الغاشية : 3] يعمل في الدنيا وينصب في العذاب يوم القيامة.

أسوأ شيء {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [فاطر: ٨] {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: ١٠٤] نعوذ بالله من الضلال.

- وكما قلنا أن هذا يكون بسنن، سنة أن الله يبين لهم {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ} [التوبة: ١١٥]، {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]، {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} هناك طريق واضح للمؤمنين ولكنه يتركه، فيملي له الله -عز وجل- {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى} [النساء: ١١٥]. {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ} ربنا يُيسر له طريق الضلال {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل : ٨-١٠].

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} [فاطر: ١٤] يقول له: لا أعرفك! {فَأَلْقَوُا السَّلَمَ} [النحل : ٢٨] يتبرؤون منهم ويتنازعون، سواء كان الرؤساء يتبرؤون من الضعفاء، أو الآلهة الباطلة تتبرأ، أو حتى مَن اتخذوهم آلهة وهم مؤمنون مثل سيدنا عيسى والملائكة يتبرؤون منهم.

ثم يقول الله -عزَّ وجلَّ- {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: ١٤] النبأ هو الخبر العظيم، هذه الأشياء العظيمة التي سوف تحدث يوم القيامة لا يعملها إلا الله، {مِثْلُ خَبِيرٍ} أي الله -عزَّ وجلَّ-.

{وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: ١٤] كأن معنى الكلام أنه لا يتكلم في شيء إلا الخبير فيه، ولن يدلك على أصل الموضوع إلا خبير.

*وأصل كلمة الخبير في اللغة؛ من عنده خبرة، وهذا ينتج بكثرة التجارب، الإنسان يكتسب الخبرة من أنه يجرب و يخطئ و يجرب و يخطئ فيحتاج إلى فترة من الزمان والتجارب حتى يكتسب خبرة؛ لكن الله -عزَّ وجلَّ- خبير بدون تجارب -سبحانه وتعالى-؛ بمعنى أن الله -عزَّ وجلَّ- يعلم أن عاقبة هذا كذا، لا يحتاج أن يخلقها مرة ويجربها فيخرج بنتيجة حاشاه سبحانه.

الله -عزَّ وجلَّ- خبير بدون هذه التجارب، الإنسان عاجز، قاصر، علمه ناقص، لابد أن يُجرب كي يكتسب خبرة {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: ١٤].

ثالث نداء في السورة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} أول نداء؛ كان بالخلق {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ} [فاطر: ٣].

ثاني نداء؛ كان بالتحذير من الشيطان.

*ثالث نداء؛ لو استقر في قلب الإنسان فعلًا يعيش أسعد حياة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ} [فاطر: ١٥] الله أكبر.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ} [فاطر: ١٥] أنت الفقير، أنت المحتاج لله -عز وجل- وليس العكس.

ليس معنى أنه يكلمك ويخبرك بتنوع الآيات وقد خلق لك هذا التنوع في الكون أنه يحتاج إليك؛ بل هو الغني -سبحانه- وأنت مَن تحتاج إليه.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ} [فاطر: ١٥] لم يقل [أنتم فقراء] وإنما جاءت {الْفُقَرَاءُ} بالألف واللام لماذا؟ قالوا أفادت الحصر وأفادت الاستغراق، ماذا يعني ذلك؟

* أفادت الحصر بمعنى أنتم فقط الفقراء، أي: أنت تحتاج لله -عز وجل- لكنه سبحانه لا يحتاج إليك.

* وأفادت الاستغراق؛ أنت فقير لله -عز وجل- تحتاج إليه في ماذا؟ في كل شيء، في كل ما تعلمه وما لا تعلمه، تحتاج إليه قبل أن توجد أصلًا {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [الإنسان: ١] من قبل أن يوجد؛ وهو تراب، وهو نطفة، وهو في الرحم، وفترة الحمل، وأثناء الوضع، وعندما يكبر، وفي كل لحظة، ويحتاجه في الخلق، وفي الرزق، وفي كل شيء، وفي المعنويات، يحتاج في كل شيء إلى الله، وهو يكبر وينمو؛ يحتاج إلى ربه سبحانه وتعالى.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ} [فاطر: ١٥] أنت فقير تحتاج إلي الله في كل شيء، النبي ﷺ كان يقول في دعاء الاستفتاح في قيام الليل: (أنا بك وإليك)[١٠] أي: أنا لا يكون لي قوام إلا بك، إلا بالاستعانة بك. وأيضا كان يقول في الصباح والمساء (اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت)[١١]

قال العلماء في معنى(بك أصبحنا) (بك):

* إما أن تكون الباء للملابسة أي: متلبسين بنعمك، غارقين في نعمك.

* أو تكون الباء للاستعانة، أي: مستعينين بحولك وقوتك، فأنت لا تستطيع أن تصبح، ولا أن تمسي، ولا أن تحيا، ولا أن تموت إلا بتوفيق من الله، وفي نعمة منه -سبحانه وتعالى-.

---

[١٠] [عن علي بن أبي طالب:] أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ قالَ وجَّهتُ وجهيَ للَّذي فطرَ السَّماواتِ والأرضَ حنيفًا وما أنا منَ المشرِكينَ إنَّ صلاتي ونسُكي ومحياي ومماتي للَّهِ ربِّ العالمينَ لا شريكَ لَه وبذلِك أمرتُ وأنا أول المسلمينَ اللَّهمَّ أنتَ الملِك لا إلَه إلّا أنتَ أنتَ ربِّي وأنا عبدُك ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنَّهُ لا يغفرُ الذُّنوبَ إلّا أنتَ واهدني لأحسنِ الأخلاقِ لا يَهدي لأحسنِها إلّا أنتَ واصرف عنِّي سيِّئَها لا يصرفُ عنِّي سيِّئَها إلّا أنتَ لبيكَ و سعديكَ و الخيرُ كلُّه في يديكَ والشر ليس إليك أنا بِك و إليك تبارَكتَ وتعاليتَ أستغفرُك وأتوبُ إليكَ فإذا رَكعَ قالَ اللَّهمَّ لَك رَكعتُ وبِك آمنتُ ولَك أسلمتُ خشعَ لَك سمعي وبصري وعظامي وعصبي فإذا رفعَ قالَ اللَّهمَّ ربَّنا لَك الحمدُ ملءَ السَّماءِ وَ ملءَ الأرضِ و ملءَ ما بينَهما وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعد فإذا سجدَ قالَ اللَّهمَّ لَك سجدتُ وبِك آمنتُ ولَك أسلمتُ سجدَ وجهيَ للَّذي خلقَه فصوَّرَه وشقَّ سمعَه وبصرَه فتبارَكَ اللَّهُ أحسنُ الخالقينَ ثمَّ يقولُ من آخرِ ما يقولُ بينَ التَّشَهدِ والتسليمِ اللَّهمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ وما أسررتُ وما أعلنتُ وما أسرفتُ وما أنتَ أعلمُ بِه منِّي أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ لا إلَه إلّا أنتَ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترمذي ٣٤٢٢ • صحيح

[١١] [عن أبي هريرة:] اللَّهمَّ بكَ أصبَحْنا، و بكَ أمْسَيْنا، وبكَ نَحيا، و بِكَ نَموتُ، و إليكَ النُّشورُ و إذا أمسى قال: اللَّهمَّ بكَ أمسَيْنا، و بكَ أصبَحْنا، و بكَ نَحيا، و بكَ نموتُ، و إليكَ المصيرُ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الأدب المفرد ٩١١ • صحيح • أخرجه أبو داود (٥٠٦٨)، والترمذي (٣٣٩١)، وابن ماجه (٣٨٦٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٣٩٩) باختلاف يسير، وأحمد (١٠٧٧٣) مختصراً، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٩٩) واللفظ له

فأنت عندما تذهب لتنام تقول: (باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه)[١٢] أي: أنا يا ربي لن أستطيع النوم إلا بتوفيقك، ولن أستطيع رفع جنبي إلا بك، هذا هو افتقار المؤمن، وعندما يسمع حي على الصلاة يقول: لا حول و لا قوة إلا بالله، لأني لا أستطيع الذهاب إلى الصلاة بقوتي بل المؤمن يفتقر إلى الله دائمًا، انظر أيضا بعد الكد والتعب من أجل أن يأتي بالطعام ويأكله يقول: (الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة)[١٣]، هذا حال المؤمن مفتقر إلى الله في كل شيء وهو لا يقول ذلك تواضعًا؛ بل حقيقةً ويقينًا، فهو قد أيقن وعرف أن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي فطر السماوات والأرض، وهو الذي خلق، و هو الذي نَوَّع، وهو الذي قدَّر، وهو الذي دبَّر، وهو الذي رزق، فهو يعلم يقينًا أنه مفتقر إلى الله حقيقةً لا تواضعًا منه.

- فكل شيء بأمره سبحانه، فالشمس تستأذن الله -عز وجل- كل يوم لتطلُع[١٤]، ونَفَسك هذا الذي يخرج قد لا يدخل، الله هو الذي يَعُدُّه وهذا من معنى قول الله -عزَّ وجلَّ- {إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا} [مريم : ٨٤] أي: بالنَفَس، فأنت لك عدد أنفاس معين وتموت بعدها، فأنت تحتاج إلي الله -عزَّ وجلَّ- في كل شيء.

{ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ} [فاطر: ١٥]، من أجمل أسماء الله -وكل الأسماء حسنى- اسم الله الغني تشعر معه أنك منشرح الصدر، فاستشعار أنك متصل بالله، معتصم به، أيّ ضائقةٍ تواجهك تصفُّ قدميك بالليل وتلجأ إلى الله -عز وجل، لك إله غني ألا تفرح؟!! {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ

---

[١٢] [عن أبي هريرة:] إذا أَوى أَحَدُكُمْ إلى فِراشِهِ، فَلْيَأْخُذْ داخِلَةَ إزارِهِ، فَلْيَنْفُضْ بها فِراشَهُ، وَلْيُسَمِّ اللَّهَ، فإنَّه لا يَعْلَمُ ما خَلَفَهُ بَعْدَهُ على فِراشِهِ، فَإِذا أَرادَ أَنْ يَضْطَجِعَ، فَلْيَضْطَجِعْ على شِقِّهِ الأيْمَنِ، وَلْيَقُلْ: سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّي بكَ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي، فاغْفِرْ لَها، وإنْ أَرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ به عِبادَكَ الصّالِحِينَ. وفي روايةٍ: بهذا الإسْنادِ، وَقالَ: ثُمَّ لْيَقُلْ: باسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، فإنْ أَحْيَيْتَ نَفْسِي، فارْحَمْها.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٧١٤ • [صحيح]

[١٣] [عن معاذ بن أنس:] من أكل طعاما ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه [وما تأخر] ومن لبس ثوبًا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا [الثوب] ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

أبو داود (ت ٢٧٥)، سنن أبي داود ٤٠٢٣ • سكت عنه [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح] • أخرجه أبو داود (٤٠٢٣) واللفظ له، والترمذي (٣٤٥٨)، وابن ماجه (٣٢٨٥)، وأحمد (١٥٦٣٢) مختصراً.

[١٤] سبق تخريجه

فَلْيَفْرَحُوا} [يونس: ٥٨] فهذا الاسم يُسعدك أن ربك -سبحانه وتعالى- غني، لا يحتاج إلي أحد؛ الخلق خلقه -سبحانه وتعالى-.

*ومن معاني اسم الله الغني؛ أن هناك مخلوقات كثيرة جدًا جدًا رائعة يعيش الإنسان ويموت ولا يراها، إذًا لماذا خلقها الله؟ هل تعتقد أن الله خلقها حتى تقول أنت سبحان الله إذا رأيتها،الله غني ليُعرفك أنه الغني لا يحتاج إليك ولا إلى عبادتك، تخيل البيت المعمور (يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، فإذا خرجوا لا يعودون إلي يوم القيامة)[١٥] الله أكبر. (ما في السماء من موضع أربع أصابع إلا و فيها ملك قائم أو ساجد أو راكع)[١٦].. ما هذا الخلق العظيم؟ ما هذا الغنى المطلق؟!

---

[١٥] [عن مالك بن صعصعة الأنصاري:] بيْنما أنا في الحطِيمِ مُضطَجِعًا ، إذْ أتاني آتٍ فقَدَّ ما بين هذه إلى هذه فاسْتخرجَ قلْبي ، ثمَّ أُتيتُ بطِسْتٍ من ذهَبٍ مملُوءةٍ إيْمانًا فغَسَلَ قلْبي بماءِ زمْزَمَ ، ثمَّ حَشَي ، ثمَّ أُعيدَ ، ثمَّ أُتيتُ بدابَّةٍ دُونَ البغْلِ ، وفوْقَ الحِمارِ أبْيَضَ ، يُقالُ لهُ البُراقُ ، يَضَعُ خَطْوَهُ عند أقْصَى طرَفِهِ ، فحُمِلْتُ عليه ، فانْطلقَ بي جِبريلُ حتى أتَى السَّماءَ الدنيا ، فاسْتفتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هذا ؟ قال : جِبريلُ ، قِيلَ : ومَنْ مَعكَ ؟ قال : مُحمدٌ ، قِيلَ : وقدْ أُرْسِلَ إليه ؟ قال : نعمْ ، قِيلَ : مرْحبًا به ، فنِعمَ المجِيءُ جاء ، ففُتِحَ ، فلَمَّا خَلَصْتُ فإذا فيها آدَمُ ، فقال : هذا أبُوكَ آدَمُ فسلِّمْ عليْهِ ، فسلَّمْتُ عليه ، فرَدَّ السلامَ ، ثمَّ قال : مرْحبًا بالنبيِّ الصالِحِ ، والابْنِ الصالِحِ . ثمَّ صعَدَ بِي حتى أتَى السماءَ الثانِيةَ ، فاسْتفتَحَ ، فقِيلَ : مَنْ هذا ؟ قال : جِبريلُ ، قِيلَ : ومَنْ مَعكَ ؟ قال : مُحمدٌ ، قِيلَ : وقدْ أُرْسِلَ إليه ؟ قال : نعمْ ، قِيلَ : مرْحبًا به ، فنِعمَ المجِيءُ جاء ، ففُتِحَ ، فلَمَّا خَلَصْتُ فإذا بيحْيَى وعِيسَى ، وهُما ابْنا الخالَةِ ، قال : هذا يحْيَى وعِيسَى ، فسلِّمْ عليْهِما ، فسلَّمْتُ ، فرَدَّا ، ثمَّ قالَا : مرْحبًا بالأخِ الصالِحِ والنبيِّ الصالِحِ . ثمَّ صعَدَ بِي حتى أتَى السماءَ الثالِثةَ ، فاسْتفتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هذا ؟ قال : جِبريلُ ، قِيلَ : ومَنْ مَعكَ ؟ قال : مُحمدٌ ، قِيلَ : وقدْ أُرْسِلَ إليه ؟ قال : نعمْ ، قِيلَ : مرْحبًا به ، فنِعمَ المجِيءُ جاء ، ففُتِحَ ، فلَمَّا خَلَصْتُ إذا يُوسُفُ ، قال : هذا يُوسفُ ، فسلِّمْ عليْهِ ، فسلَّمْتُ عليه ، فرَدَّ ، ثمَّ قال : مرْحبًا بالأخِ الصالِحِ ، والنبيِّ الصالِحِ . ثمَّ صعَدَ بِي حتى أتَى السماءَ الرابعةَ ، فاسْتفتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هذا ؟ قال : جِبريلُ ، قِيلَ : ومَنْ مَعكَ ؟ قال : مُحمدٌ ، قِيلَ : وقدْ أُرْسِلَ إليه ؟ قال : نعمْ ، قِيلَ : مرْحبًا به ، فنِعمَ المجِيءُ جاء ، ففُتِحَ ، فلَمَّا خَلَصْتُ إذا إدْرِيسُ ، فسلِّمْ عليه ، فسلَّمْتُ ، فرَدَّ ، ثمَّ قال : مرْحبًا بالأخِ الصالِحِ ، والنبيِّ الصالِحِ . ثمَّ صعَدَ بِي إلى السماءِ الخامِسَةِ ، فاسْتفتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هذا ؟ قال : جِبريلُ ، قِيلَ : ومَنْ مَعكَ ؟ قال : مُحمدٌ ، قِيلَ : وقدْ أُرْسِلَ إليه ؟ قال : نعمْ ، قِيلَ : مرْحبًا به ، فنِعمَ المجِيءُ جاء ، ففُتِحَ ، فلَمَّا خَلَصْتُ إذا هارُونُ ، قال : هذا هارُونُ ، فسلِّمْ عليْهِ ، فسلَّمْتُ عليْهِ ، فرَدَّ ، ثمَّ قال : مرْحبًا بالأخِ الصالِحِ ، والنبيِّ الصالِحِ . ثمَّ صعَدَ بِي إلى السماءِ السادسةِ ، فاسْتفتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هذا ؟ قال : جِبريلُ ، قِيلَ : ومَنْ مَعكَ ؟ قال : مُحمدٌ ، قِيلَ : وقدْ أُرْسِلَ إليه ؟ قال : نعمْ ، قِيلَ : مرْحبًا به ، فنِعمَ المجِيءُ جاء ، ففُتِحَ ، فلَمَّا خَلَصْتُ فإذا مُوسَى ، قال : هذا مُوسَى فسلِّمْ عليه ، فسلَّمْتُ عليه ، فرَدَّ ، ثمَّ قال : مرْحبًا بالأخِ الصالِحِ ، والنبيِّ الصالِحِ ، فلمَّا تجاوَزْتُ بَكَى ، قِيلَ لهُ : ما يُبكِيكَ ؟ قال : أبْكِي لأنَّ غُلامًا بُعِثَ بعدِي يَدخُلُ الجنةَ من أُمَّتِه أكثرُ مِمَّنْ يَدخُلُ من أُمَّتِي . ثمَّ صعَدَ بِي إلى السماءِ السابعةِ ، فاسْتفتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هذا ؟ قال : جِبريلُ ، قِيلَ : ومَنْ مَعكَ ؟ قال : مُحمدٌ ، قِيلَ : وقدْ أُرْسِلَ إليه ؟ قال : نعمْ ، قِيلَ : مرْحبًا به ، فنِعمَ المجِيءُ جاء ، ففُتِحَ ، فلَمَّا خَلَصْتُ إذا إبراهيمُ ، قال : هذا أبُوكَ

وعندما تغيب عن الإنسان هذه المعاني تراه محبطًا ويائسًا؛ يعيش في حيز ضيق، في نقطة صغيرة من الأرض، يشعر أن مشاكله ليس لها حل، وهي هينة جدًا بقدرة الله.

على سبيل المثال تخيل أن أحدًا سُحِبت رخصة قيادته، وعندما ذهب ليعيدها قابل وزيرًا مسئولًا عن المرور في الجمهورية، وهو في حالة شديدة من الإحباط، وهذا الوزير يقول له ماذا تريد؟ ما حاجتك؟ فيخبره صاحبنا هذا أن هذا الأمر صعب جدًا، وأنه في أزمةٍ شديدةٍ لا أحد يستطيع حلها، وهي أن رخصته قد سُحِبت منه، فيخبره هذا الوزير أو صاحب هذا المنصب بأن هذا الأمر هيّن جدًا، وأنه عليه ألا يخاف نهائيًا، بل إنه يستطيع أن يسير بدون رخصة قيادة، فصاحبُنا هذا لم يقدِّر هذا الوزير قدره حين ظنَّ أن حاجته هذه صعبة عليه، -ولله المثل الأعلى- هذا تمامًا حالنا مع الله -عز وجل- {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الزمر: ٦٧]، أنت دائمًا تعيش في مشاكلك الصغيرة؛ تنظر إلى الأسباب من

إبراهيمُ فسلِّمْ عليه ، فسلَّمْتُ عليه ، فرَدَّ السلامَ ، فقال : مرْحبًا بالابْنِ الصالِحِ ، والنبيِّ الصالِحِ . ثمَّ رُفِعَتْ لِي سِدرةُ المُنْتَهَى ، فإذا نَبقُها مِثلُ قِلالِ هَجَرَ ، وإذا ورَقُها مِثلُ آذانِ الفِيَلةِ ، قال : هذه سِدرةُ المُنْتَهَى ، وإذا أربعةُ أنْهارٍ ؛ نَهْرانِ باطِنانِ ، ونَهْرانِ ظاهِرانِ ، قُلتُ : ما هذا يا جِبريلُ ؟ قال : أمَّا الباطِنانِ فنَهْرانِ في الجنةِ ، وأمَّا الظاهِرانِ فالنِّيلُ والفُراتُ . ثمَّ رُفِعَ لِيَ البيْتُ المعْمُورُ ، فقُلتُ : يا جبريلُ ! ما هذا ؟ قال : هذا البيتُ المعمُورُ ، يَدخُلُهُ كُلَّ يومٍ سبعُونَ ألْفَ ملَكٍ ، إذا خَرجُوا مِنهُ لمْ يُعودُوا إليه آخِرَ ما عليْهِمْ ، ثمَّ أُتيتُ بإناءٍ من خمْرٍ ، وإناءٍ من لبَنٍ ، وإناءٍ من عسَلٍ ، فأخذْتُ اللبَنَ ، فقال : هِيَ الفِطرةُ التي أنتَ عليْها وأُمَّتُكَ . ثمَّ فُرِضَ عليَّ خمْسُونَ صلاةً كلَّ يومٍ ، فرَجعتُ ، فمَرَرْتُ على مُوسَى ، فقال : بِمَ أُمِرْتَ ؟ قُلتُ : أُمِرْتُ بِخمسِينَ صلاةً كلَّ يومٍ ، قال : إنَّ أُمَّتَكَ لا تَستطيعُ خمسِينَ صلاةً كلَّ يومٍ ، وإنِّي واللهِ قدْ جرَّبْتُ الناسَ قبلَكَ ، وعالجْتُ بني إسرائِيلَ أشَدَّ المعالجَةِ ، فارْجِعْ إلى ربِّكَ فسَلْهُ التَّخفيفَ لأُمتِكَ ، فرَجعتُ فوضَعَ عنِّي عشْرًا ، فرَجعتُ إلى مُوسَى ، فقال مِثلَهُ ، فرجعتُ ، فوَضعَ عنِّي عشْرًا ، فرَجعتُ إلى مُوسَى ، فقال مِثلَهُ ، فرجعتُ ، فوضَعَ عنِّي عشْرًا ، فرجعتُ إلى مُوسَى ، فقال مِثلَهُ ، فرجعتُ ، فوضَعَ عنِّي عشْرًا ، فأُمِرتُ بعشْرِ صلَواتٍ كلَّ يومٍ ، فقال مِثلَهُ ، فرجعتُ فأُمِرْتُ بخمْسِ صلَواتٍ كلَّ يومٍ ، فرجعتُ إلى مُوسَى ، فقال : بِمَ أُمِرْتَ ؟ قلتُ : أمِرتُ بخمْسِ صلَواتٍ كلَّ يومٍ قال : إنَّ أُمَّتَكَ لا تَستطيعُ خمْسَ صلَواتٍ كلَّ يومٍ ، وإنِّي قدْ جرَّبْتُ الناسَ قبْلَكَ ، وعالجْتُ بني إسرائِيلَ أشدَّ المعالجَةِ ، فارْجِعْ إلى ربِّكَ فسلْهُ التَّخفيفَ لأمَّتِكَ ، قُلتُ : سألْتُ ربِّي حتى اسْتحيَيْتُ مِنهُ ، ولكِنْ أرْضَى وأُسَلِّمُ ، فلَمَّا جاوزْتُ نادانِي مُنادٍ ، أمْضيتُ فريضَتِي ، وخَفَّفْتُ عن عِبادِي

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٢٨٦٦ • صحيح • أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤) باختلاف يسير.

[١٦] [عن أبي ذر الغفاري:] إنِّي أرى ما لا ترَونَ وأسمعُ ما لا تسمَعون، أَطَّتْ السماءُ وحق لها أن تَئِطَّ؛ ما فيها موضِعُ أربعِ أصابِعَ إلا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهَتَهُ لله ساجدًا. واللهِ لو تَعلمونَ ما أعْلَمُ لضَحِكْتُمْ قليلًا ولبَكَيْتُمْ كثيرًا، وما تَلَذَّذْتُمْ بالنساءِ على الفُرُشِ، ولخَرَجْتُمْ إلى الصَّعُداتِ تجْأَرونَ إلى اللهِ. لوَدِدْتُ أنِّي كنتُ شجرةً تُعْضَدُ

الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٢٣١٢ • حسن غريب

حولك، وإلى الأرض التي تحيا عليها، وتشعر أن هذه نهايتك، أما القرآن فإنه يرفعك إلى الأعلى، ويجعلك تنظر إلى الأمور بشكل أعمق، ويعلمك ألا تكون سطحيًّا في نظرتك إلى الأمور، فيكون عندك يقين بقدرة الله المطلقة قال تعالى: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي} [فاطر: ١٣] ، {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} [يس: ٣٨]، أنت لا تتخيل أن هناك ملائكة، ورسل وأولي أجنحة، وأنه سبحانه يزيد في الخلق ما يشاء، وأنه سبحانه الذي خلق التنوع، ودبر ورزق وفعل وفعل –سبحانه وتعالى–؛ فلذلك ترى المؤمن مطمئنًا، يعيش مع آيات الله، ويخرج منها مطمئنًا بالله.

*فأنت بعدما تنتهي من سورة مثل سورة فاطر، تخرج منها مطمئنًا، وتملك سكينة في قلبك، لماذا؟! لأنك كنت ضعيفًا ومازلت ضعيفا {أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ}[فاطر: ١٥] والفقير محتاج دائمًا إلى غني يلجأ إليه؛ لذلك أسوأ جريمة وأول جريمة قام بها الإنسان في سورة "العلق" أنه ظنَّ أنه يستطيع أن يستغني عن الله –سبحانه وتعالى– قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ - ٥]، فالله الذي خلق الإنسان من علق؛ أي أن الإنسان ضعيف، وعلم الإنسان ما لم يعلم؛ أي أن الإنسان جاهل، و بعد هذا يقول الله تعالى:{كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى} [العلق: ٦]، يطغى بعد أن كان ضعيفًا وعلقة وجاهلًا؟! ولكن لماذا يطغى؟ {أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٧]، لم يعرف أنه فقير ومحتاج.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ} هو (أسلوب قصر) أي: هو وحده فقط {الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: ١٥].

- أنتم الفقراء إلي الله في كل شيء، في طعامكم، في منامكم، في حياتكم، في رزقكم، في كل شيء، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ} [فاطر: ١٥] عن كل أحد –سبحانه وتعالى– {هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: ١٥] قالوا: جاء بالحميد بعد الغني؛ لأنه من الممكن عند البشر أن نجد أحدًا غنيًّا لكنَّ أفعاله لا تُحمد، أو غني لكنه لا يُعطِي؛ لكن الله –سبحانه وتعالى– غني حميد يُحْمَد لأفعاله، ومن كثرة ما يعطي يَحْمَدُه الحامدون؛ فعطاؤه سبحانه وتعالى متصل.

{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فلا مُمْسِكَ لَهَا} [فاطر: ٢].. الله سبحانه عندما يعطي يفتح بعطائه كل المغاليق ويغدق على عباده كأنه سيل، فعطاؤه لا ينتهي أبدًا؛ فيكون عطاؤه متجددًا متصلًا؛ فهو غني حميد، يُحْمَد على كل فعل من أفعاله –لو قلنا إن حميد بمعنى محمود– أي يحمده الخلق على أفعاله،

حميد: بمعني غني، فكل فعل من أفعاله أهلٌ لأن يُحْمَد عليه -سبحانه وتعالى-، وأن يشكر عليه، فهو مستحق للحمد وحده.

_أو حميد: بمعنى أنه يَحْمَد (يشكر) أفعال الناس، فعلى الرغم من أنه غني ولا يحتاج للناس، إلا أنه -سبحانه- يشكر طاعة عبده ويجازيه على طاعته أجرًا مضاعفًا.

فمثلًا يأتي إنسان لهذا الرب الغني الملك -سبحانه وتعالى- ويُقدِّم شيء من الطاعة أو العمل والله لا يحتاج هذا ولكنه يعطيه ويشكر له ذلك ثم العجيب أن هذا الإنسان قد يتباهى أو يعجب بعمله،

*فعلى سبيل المثال تخيل مشهد ملك من الملوك غني جدًا، يملك القصور، السيارات، الطيارات، السفن، الأطعمة، والأشربة، وجاء الناس ليقدموا له هدايا، ليس فقط سيارة مثلا، لا؛ بل أسطول من السفن، وهذا كله في ملك الملك لا يساوي شيئًا، وتخيل أحدهم جاء ببعض حبات التفاح وفرح جدًا بما يقدم، بل إنه معجب بما يقدمه، بأي شيءٍ يفرح! فأنت عندما تقارن عبادتك وحالك بعُبَّاد السلف، وتنظر إلى عظمة من تعبد -سبحانه وتعالى-، هو الغني -سبحانه وتعالى- ولله المثل الأعلى.

- فأحيانًا تقوم لتصلي ركعتين في الليل، فتشعر أنك تقدم شيئًا، وأنك فعلت وفعلت، فتغتر بحالك -والعياذ بالله- وتنسى أنك مفتقر إلى الله، وأنك لم تقم إلا بتوفيق من الله، فدائمًا يجب أن يستشعر الإنسان بأن المنّ من الله -سبحانه وتعالى- والتوفيق من الله -سبحانه وتعالى-. فالشاهد: {وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: ١٥] يُحْمَد على أفعاله، ويَحْمَد للطائعين أفعالهم يشكر لهم على ذلك.

ثم انتقل بعد خطاب الرحمة والرفق إلى خطاب شديد؛ حتى لا يظن المشركون أن الأمر واسع، فيقول الله -عزَّ وجلَّ-:{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [فاطر: ١٦] هذه الآية مرعبة، فيخبرنا -سبحانه وتعالى- أنه قادر أن ينسف هذه الأرض، ويقبض كل من عليها من البشر، ويأتي بخلقٍ آخر يطيعه.

ولو شاء لفعل -سبحانه وتعالى-، مثل قول الله -عزَّ وجلَّ- {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [المائدة: ١٧]، فانظر عندما أغضبوا الملك -سبحانه وتعالى-، وادَّعوا أن له ولدًا، أخبرهم مَن الذي يملك أن يقبض عيسى وأمه ومن في الأرض جميعًا؟! فإذا

غضب الملك –سبحانه وتعالى– الكل يجثو على ركبتيه حتى الأنبياء، وكل الخلق يقول نفسي نفسي، اللهم سلم اللهم سلم[١٧].

{إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر ١٧] الأمر يسير على الله –عز وجل– ، إن تعصوا أمره يقبضكم جميعًا.

- بعض الناس قال من معاني هذه الآية أنه إذا استمر العصيان كثيرًا وصار الكفر أكثر من الإيمان والطاعة، ولا يوجد مصلحون؛ يُهلك الله –سبحانه وتعالى– الجميع؛ أما الطائعون فيبعثون على

---

[١٧][عن أبي هريرة:] قال ناسٌ: يا رسولَ اللهِ هل نرى ربَّنا يومَ القيامةِ؟ قال: (هل تُضارُّونَ في رؤيةِ الشَّمسِ في يومٍ صائفٍ والسَّماءُ مُصْحيةٌ غيرُ مُتغيِّمةٍ ليس فيها سَحابةٌ؟) قالوا: لا قال: (فهل تُضارُّونَ في رؤيةِ القمرِ ليلةَ البدرِ والسَّماءُ مُصحِيَةٌ غيرُ مُتغيِّمةٍ ليس فيها سَحابةٌ؟) قالوا: لا قال: (فوالَّذي نفسي بيدِه كذلك لا تُضارُّونَ في رؤيةِ ربِّكم يومَ القيامةِ كما لا تُضارُّونَ في رؤيةِ واحدٍ منهما يَلْقى العبدُ ربَّه يومَ القيامةِ فيقولُ اللهُ جلَّ وعلا: أيْ فُلُ أ لَمْ أخلُقْكَ؟ أ لَمْ أجعَلْكَ سميعًا بصيرًا؟ أ لَمْ أُزوِّجْكَ؟ أ لَمْ أُكرِمْكَ؟ أ لَمْ أُسخِّرْ لكَ الخيلَ والإبلَ؟ أ لَمْ أُسوِّدْكَ وأذَرْكَ ترأَسُ وتربَعُ؟ فيقولُ: بلى أيْ ربِّ فيقولُ: فظَنَنْتَ أنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ فيقولُ: اليومَ أنساكَ كما نسِيتَني قال: ويَلقاه الآخَرُ فيقولُ: أيْ فُلُ؟ أ لَمْ أخلُقْكَ؟ أ لَمْ أجعَلْكَ سميعًا بصيرًا؟ أ لَمْ أُزوِّجْكَ؟ أ لَمْ أُكرِمْكَ؟ أ لَمْ أُسخِّرْ لكَ الخيلَ والإبلَ؟ أ لَمْ أُسوِّدْكَ وأذَرْكَ ترأَسُ وتربَعُ فيقولُ: بلى يا ربِّ فيقولُ: فماذا أعدَدْتَ لي؟ فيقولُ: آمَنْتُ بكَ وبكتابِكَ وبرسولِكَ وصدَّقْتُ وصلَّيْتُ وصُمْتُ فيقولُ: فها هنا إذًا ثمَّ يقولُ: ألا نبعَثُ عليكَ قال: فيُفكِّرُ في نفسِه مَن هذا الَّذي يشهَدُ عليَّ؟ قال: وذلكَ المنافِقُ الَّذي يغضَبُ اللهُ عليه وذلكَ لِيُعذِرَ مِن نفسِه فيُختَمُ على فيه ويُقالُ لِفخِذِه: انطِقي فتنطِقُ فخِذُه وعِظامُه وعصَبُه بما كان يعمَلُ ثم يُنادي مُنادٍ ألا اتَّبَعَتْ كلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبُدُ فيتَّبِعُ عبَدَةُ الصَّليبِ الصَّليبَ وعبَدَةُ النّارِ النّارَ وعبَدَةُ الأوثانِ الأوثانَ وعبَدَةُ الشَّيطانِ الشَّيطانَ ويتَّبِعُ كلُّ طاغيةٍ طاغيتَها إلى جَهنَّمَ ونَبقى أيُّها المؤمِنونَ ونحنُ المؤمِنونَ فيأتينا ربُّنا تبارَك وتعالى ونحنُ قيامٌ فيقولُ: علامَ هؤلاءِ قيامٌ؟ فنقولُ: نحنُ عبادُ اللهِ المؤمِنونَ آمنّا به ولَمْ نُشرِكْ به شيئًا وهذا مَقامُنا ولَنْ نبرَحَ حتّى يأتينا ربُّنا وهو ربُّنا وهو يُثبِّتُنا فيقولُ: وهل تعرِفونَه؟ فنقولُ: سُبحانَه إذا اعترَفَ لنا عرَفْناه) قال سُفيانُ: وها هنا كلمةٌ لا أقولُها لكم قال: فننطلِقُ حتّى نأتيَ الجِسرَ وعليه خَطاطيفُ مِن نارٍ تخطَفُ النّاسَ وعندَها حلَّتِ الشَّفاعةُ اللَّهمَّ سلِّمْ سلِّمْ اللَّهمَّ سلِّمْ سلِّمْ اللَّهمَّ سلِّمْ فإذا جاوَزَ الجِسرَ فكلُّ مَن أنفَقَ زوجًا مِن المالِ ممّا يملِكُ في سبيلِ اللهِ فكلُّ خَزَنةِ الجنَّةِ تدعوه: يا عبدَ اللهِ يا مُسلِمُ هذا خيرٌ فتَعالَ يا عبدَ اللهِ يا مُسلِمُ هذا خيرٌ فتَعالَ يا عبدَ اللهِ يا مُسلِمُ هذا خيرٌ فتَعالَ) فقال أبو بكرٍ وهو إلى جَنْبِ النَّبيِّ ﷺ: ذاكَ عبدٌ لا توى عليه يدعُ بابًا ويلِجُ مِن آخَرَ فقال النَّبيُّ ﷺ ومسَحَ مَنْكِبَيْهِ: (إنِّي لَأرجو أنْ تكونَ منهم)

ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٧٤٤٥ • أخرجه في صحيحه

نياتهم، فعندما سألت زوج النبيِّ ﷺ النبيَّ فقالت: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم، إذا كثر الخبث)[١٨]، ويوم القيامة -كما في حديث آخر- قال: (ثم يبعثون على نياتهم)[١٩].

فيفزع المسلم عندما يسمع هذه الآيات، لأنه لا يستطيع أن يُغَيّر وهو ضعيف وحيد، والفساد شديد، والعذاب يأتي عامًّا على المطيع والعاصي؛ لأن هناك معاصي -أخبرنا الشرع- أن عقوباتها عامة مثل ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو شيوع الفاحشة، والإعلان بها (وما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها)[٢٠].

هناك أشياء في الشرع عقوباتها عامة. فمن الممكن أن تأتي عقوبات عامة واستئصال عام لجزء من الناس.

{ولَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [فاطر: ١٨] المسلم يخاف، فتأتي الآية التي تليها لتقول له وماذا عن يوم القيامة؟ إذا كان هناك استئصال عام، أو حدث عذاب عام، أو إهلاك عام، يوم القيامة كل شخص سيحاسب بمفرده {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}[فاطر: ١٨].

---

[١٨] [عن زينب أم المؤمنين:] أنَّ النبيَّ ﷺ، دَخَلَ عَلَيْها فَزِعًا يقولُ: لا إلَهَ إلّا اللَّهُ، ويْلٌ لِلْعَرَبِ مِن شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِثْلُ هذِه وحَلَّقَ بإصْبَعِهِ الإبْهامِ والَّتي تَلِيها، قالَتْ زَيْنَبُ بنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يا رَسولَ اللَّهِ: أنَهْلِكُ وفينا الصّالِحُونَ؟ قالَ: نَعَمْ إذا كَثُرَ الخَبَثُ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٣٤٦ • [صحيح]

[١٩] [عن عائشة أم المؤمنين:] يَغْزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ، فإذا كانُوا ببَيْداءَ مِنَ الأرْضِ، يُخْسَفُ بأوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ قالَتْ: قُلْتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، كيفَ يُخْسَفُ بأوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ، وفيهم أسْواقُهُمْ، ومَن ليسَ منهمْ؟ قالَ: يُخْسَفُ بأوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ على نِيّاتِهِمْ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢١١٨ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٢١١٨) واللفظ له، ومسلم (٢٨٨٤)

[٢٠] [عن عبدالله بن عمر:] أقبل علينا رسولُ اللهِ ﷺ فقال يا معشرَ المهاجرين خمسُ خِصالٍ إذا ابتليتم بهنَّ وأعوذُ باللهِ أن تدركوهنَّ لم تظهَرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتّى يُعلِنوا بها إلّا فشا فيهم الطّاعون والأوجاعُ الَّتي لم تكُنْ مضت في أسلافِهم الَّذين مضَوْا ولم ينقُصوا المكيالَ والميزانَ إلّا أُخِذوا بالسِّنين وشدَّةِ المؤنةِ وجوْرِ السُّلطانِ عليهم ولم يمنَعوا زكاةَ أموالِهم إلّا مُنِعوا القطْرَ من السَّماءِ ولولا البهائمُ لم يُمطَروا ولم يَنقُضوا عهدَ اللهِ وعهدَ رسولِه إلّا سلَّط اللهُ عليهم عدوًّا من غيرِهم فأخذوا بعضَ ما في أيديهم وما لم تحكُمْ أئمَّتُهم بكتابِ اللهِ تعالى ويتخيَّروا فيما أنزل اللهُ إلّا جعل اللهُ بأسَهم بينهم

المنذري (ت ٦٥٦)، الترغيب والترهيب ٢٩/٣ • [إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما] • أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١١) واللفظ له

- لاحظ تلك الآيات من أكثر الآيات التي فيها بلاغة؛ في ألفاظها، بالطبع كل آيات القرآن هكذا لكن المقصود على حسب ما يُفتح على الناس.

{وَلَا تَزِرُ} [فاطر: ١٨] ما معنى تزر؟ أي: تحمل، والوزر هو الحمل الثقيل، قالوا معنى الوزر؛ الوقر –وزنًا ومعنى– أن الوزر هو الحمل. وبعضهم قال أن الأزر هو الظهر {اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} [طه: ٣١] أي كأن هناك من يمسك ظهرك ويشدّك.

وقالوا: إن الوزر هو الحِمل الذي يُتْعِب الظهر.

{وَلَا تَزِرُ} أي لا تحمل، وكلمة {وَازِرَةٌ} أي أن كل شخص سيحمل حمله الخاص به، فسمّى الله –عزّ وجل– كل نفس في تلك اللحظة {وَازِرَةٌ}.

{وَازِرَةٌ} اسم فاعل، أي شخص في لحظة حمل الأثقال. فحال المرء في تلك اللحظة أنه يحمل.

إذًا {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [فاطر: ١٨] من اللفظة نفهم أنه بالفعل يحمل حِملا ثقيلا، {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ} هو يحمل وزره، وبجانبه من يحمل هو الآخر وزره، فلا يستطيع أحد أن يحمل وزر شخص آخر.

فماذا يحمل كل شخص؟ يحمل وزره.

{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [فاطر: ١٨] أي وزر نفسٍ أخرى، لا تحمل أي نفس حمل أي نفس أخرى، ولكن كل شخص يحمل وزره.

وسمّاها {وَازِرَةٌ}؛ لانشغالها بحِملها. لم يقل (ولا تزر نفس وزر أخرى) لِمَ سمّاها بفعلها وازرة؟ لكي تعرف أنّها مشغولة، فكل شخص مشغول بنفسه، كل شخص يوم القيامة يظل يفكر: أنا فعلت كذا يوم كذا، ماذا سيحدث لي؟ كل شخص مشغول وغير متفرغ.

{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [فاطر: ١٨] أي لن يحمل أحد عن أحد.

*إذًا الجزء الأول من الآية يقول الله –عزّ وجلّ– أنه لن يحمل أحد عن أحد، فلن ترى من يقول لك: هذا إنسان شهم ونبيل، طوال وجودنا في الآخرة يذهب للناس يخبرهم: هل من الممكن أن أحمل عنك سيئة؟

لا، هذا غير موجود. هذا موجود في الدنيا، يحمل عنه حقيبة أو شيء، إنما في الآخرة لن ترى هذا، لن يتطوع أحد ويحمل سيئة أحد أبدًا.

*إذًا هو لن يفعل هذا من نفسه، ولكن ماذا لو طلب أحد؟

انظر الآية {وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [فاطر: ١٨] تلك الآية تحتاج درسًا بمفردها، سنمر عليها سريعًا ولكن كل لفظة فيها بحاجة إلى وقفة.

[وإن] تفيد الشك أي لن يفعل ذلك أحد وكأنه نادرًا من يفعل هذا؛ لأن كل شخص سيكون مشغولًا.

هناك أناس الحِمل الخاص بها ثقيل جدًا، ماذا ستفعل؟ {وَإِنْ تَدْعُ} تدعو: أي تنادي بصوتٍ عالٍ فيه تضرع وبكاء، تظل تنادي... تخيل مشهد شخص يوم القيامة يحمل أحمالًا ويظل يصرخ وينادي.

{وَإِنْ تَدْعُ} ماذا؟ لم يقل [نفس]، ولكن قال **{مُثْقَلَةٌ}** فماذا تعني مثقلة؟ أي أن وزرها كان ثقيلًا جدًا. {مُثْقَلَةٌ} أي النفس المثقلة.

وقال بعضهم –وإن كان ليس هذا هو الرأي الراجح– ولو كانت أنثى. تخيل المشهد، امرأة كبيرة تحمل أحمالًا ثقيلة من الذنوب على ظهرها {يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [الأنعام: ٣١] نعوذ بالله من الذنوب، {وَإِنْ تَدْعُ} تنادي وتصرخ {مُثْقَلَةٌ} تحمل حِملًا ثقيلًا جدًا جدًا عليها.

إذًا {مُثْقَلَةٌ} أتت مؤنثة إما: للنفس، أو للمؤنث –وهذا مرجوح، أو من يحمل حِملًا طويلًا، لمدة طويلة.

فعندما يتمرَّس الإنسان في شيء، فمثلًا نقول لعالم تمرّس كثيرًا في العلم ((عَلَّامَة))، فتاء التأنيث تعني التمكن في الشيء، أو كلمة رحَّالة، رحَّالة معناها ليست مؤنثة، وعلَّامة كذلك، بل معناها أنّه تمكّن في العلم. فمعنى {مُثْقَلَةٌ}: تحمل حملا ثقيلًا جدًا.

{وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا} [فاطر: ١٨] يظل يشير للناس إلى حِمله، فهو لا يريد أي شيء آخر، لا أن يواسيه أحد ولا أي شيء، ولكن يريد فقط أن يحمل عنه أي شخص هذا الحمل {لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [فاطر: ١٨].

{لَا يُحْمَلْ} عندما تحمل عن أحد، هل تحمل منه أو عنه؟ تحمل عنه. فلو قال لا يُحمل عنه، [عن] معناها أنّك خففت عندما حملت، [عن] تلك يسمّونها: حرف التجاوز والإزالة. فلو قال [لا يُحْمل

عنه] كان معنى الآية: أنّه لن يحمل أحد ما يخفف عنه، لكن من الممكن أن يحمل شيئًا صغيرًا، بمعنى لو كان شخص يحمل ألف كيلو ذنوب على ظهره، لكي يخفف هذا الحمل يحتاج من يحمل عنه مثلا ٢٠٠ كيلو ذنوب، فلو كان [لا يُحمل عنه] كان سيصبح معنى الآية: لن يحمل أحد منه ٢٠٠ ذنوب، لكن من الممكن أن يحمل ذنبين أو ثلاثة.

ولكن كلمة {لَا يُحْمَلْ مِنْهُ} [فاطر: ١٨] أي لن يأخذ أحد منه ولا ذنب، سواء خفف أو لم يخفف، لذلك قال {لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ} [فاطر: ١٨] -وجاءت كلمة [شيء] نكرة وهي أعم كلمة في اللغة- أي لن يؤخذ منه حتى ربع ذنب.

مشهد مبكي؛ أريدك أن تعيش معه اليوم طوال الليل، شخص يقف في عرصات يوم القيامة في العرق، ويحمل ألوف مؤلفة من الذنوب، أو امرأة، ويصرخ وينادي كل من يمر بجانبه ويشير، يظل يشير على الحِمل، أن احملوا عني ولو شيء، ولو ذنب، لكن لا أحد.

العجيب أنها من الممكن أن تنادي على ابنها ولا يجيبها، {لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [فاطر: ١٨] لو مر ابنها فلن يحمل عنها سيئة واحدة. لو مر أبوه لن يحمل عنه ذنب واحد، الله أكبر.

- مشهد مرعب، فما الذي يجعل إنسانًا يعيش تابعًا لغيره بعد هذا؟!

والآيات في سورة فاطر وتابعة لسورة سبأ بعدها تعالج مسألة التبعية، فهناك من يقول: أنا أعيش في وسط تقاليد أو وسط المستكبرين. لا، أنت ستحاسب وحدك، لن ينفعك أحد، ولن يحمل عنك ولو ذنبًا واحدًا، ولو معصيةً واحدةً. ومهما ظللت تصرخ وتبكي وتنادي وتشير وتذهب لأقرب الناس وتترجى، ولو أن يحمل ذنبًا واحدًا فلن يحمل. تظل تخبر الناس أنك ستوزعها عليهم، وأنه لن يحمل أحد ١٠٠ معصية، كل شخص يحمل ذنبًا واحدًا فقط. لكن أبدًا، {وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [فاطر: ١٨]، فهو مشهد مؤلم.

*العجيب أن هذا المشهد لا يتأثر به إلا المصدّق بالغيب، {إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [فاطر: ١٨] رغم أنه مشهد مؤثر؛ لكن من لا يؤمن بالغيب مهما ظللت تخبره، لا يتأثر.. فربنا يقول للنبي ﷺ أن الآيات كافية، وكفيلة لإنابة أي أحد؛ لكن الناس لا تصدّق بالغيب {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨]. كما سيأتي معنا المرة القادمة {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [فاطر:

٢٢] أي ليس بيدك، ماذا ستفعل له؟! لن تستطيع أن تسمعه {إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٢-٢٣] وظيفتك الإنذار فقط، فالشاهد {إنما} بصيغة الحصر تعني: وظيفتك الإنذار.

* إذًا من الذي سيستفيد من الآيات؟ {إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ} [فاطر: ١٨] من يصدّق أن هناك غيب ويخشى الله، هذا الذي سيستفيد من هذا الكلام، لكن من لا يفكّر في الغيب ولا الآخرة، ولا يصلي، لن يستفيد ولو ظللت تكلّمه للأبد.

{إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ} [فاطر: ١٨] ودلالة أنه خائف من الله -عزّ وجلّ- أنه يحافظ على الصلاة، من يقول أنه يخاف الله ولا يحافظ على الصلاة كذّاب، {إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ}[فاطر: ١٨].

{وَمَنْ تَزَكَّى} هذا أيضًا من التربية النفسية للداعية {وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ} [فاطر: ١٨] مثل قول الله -عزّ وجلّ- للنبي ﷺ {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} [البقرة: ٢٧٢] ماذا ستفعل؟! مثل قول الله -عزّ وجلّ- للنبي ﷺ {وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى} [عبس: ٧] ليس عليك، لن تُحاسب عليه؛ فلا تُحمّل نفسك فوق طاقتها {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨] كما أتى في السورة {وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ} [فاطر: ١٨].

* كل شيء بيد الله -عزّ وجلّ، هو الأعلم بالناس، هو من سيحاسبهم {وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [فاطر: ١٨] كل الناس يعودون إلى الله -عزَّ وجلَّ-، الله -عزَّ وجلَّ- أعلم بأحوالهم، الله -عزَّ وجلَّ- هو من سيحاسبهم على أعمالهم، الله -عزَّ وجلَّ- حفيظ عليهم، الله -عزَّ وجلَّ- وكيل عليهم.

نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يرزقنا حسن الخاتمة. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك